

الموسوعة الإسلامية الكبرى

مكتبة

الرئاسة والرئاسة

تأليف

الدكتور فطحي لوتفا

مقدمة بقلم السيد

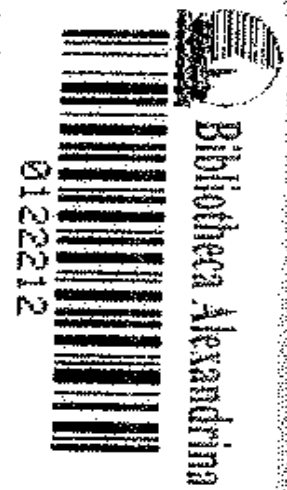
كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة

مطبع الطبع والنشر دار الكتب الحديثة

أصحابها قوهيق عتيق عتيق عتيق

مسارح الحرير الحديثة بالقاهرة



قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب عفاً عنها بإقليم الجمهورية

الموسوعة الإسلامية الكبرى

محمد بن عبد الله

الرسالة والرسول

بمعلم

الدكتور فاضل لوقا

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية — أغسطس ١٩٥٩
طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم

الموسوعة الإسلامية الكبرى

محكمة
الرسالة والرسول

تأليف
الدكتور فطحي لوقا

تعريف

بقلم السيد

كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما الإسلام ؟

وما المسيحية ؟

وما الموسوية الحق ؟

هل هي إلا أديان سماوية تنزلت على البشر في مراحل
مختلفة من حياتهم ، ليستشرفوا إلى المثل العليا ، ويستمسكوا
بالحلق والمضيلة ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ويرتبطوا
إلى الله الخالق الرحمان القادر ارتباط الحب والرجاء
والخشية ، فيعيشوا معايشوا على الأرض إخوة متحابين ،

يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذي
الذي خلقهم وإليه مصيرهم جميعاً في يوم لا ريب فيه ؟ . . .
• إيمان بالله الواحد . . .

• تطلع إلى المثل العليا في التعايش الإنساني . . .
• استمساك بالخلق والفضيلة في السلوك الفردي
والاجتماعي . . .

• أخوة إنسانية جامعة تحصن البشر ضد الأثرة والاستعلاء
والبغي ، وتربط بعضهم إلى بعض برابط الحب والتعاون . . .
• رجاء مشترك إلى الله أن يشملهم ، يوم يصيرون إليه ،
بالرحمة والرضوان .

تلك هي المبادئ العامة في ديننا المشترك ، نستحضرها
جميعاً فكرة و يقيناً في كل صلاة نصليها ، وفي كل صيام
نرتفع به فوق مستوى شهواتنا ، وفي كل زكاة نؤديها لنؤكد
الأخوة الإنسانية بين بعضنا وبعض ، وفي كل رحلة حج
نرحلها من قريب أو من بعيد لنعمل رحم الإنسانية
المؤمنة بالله .

مبادئ عامة لا يختلف في الإيمان بها ذو دين عن ذي دين
غيره ، على تعدد الأسماء والصفات والبقاع والمجتمعات

وما يستتبع تعددها من اختلاف في بعض الموازين أو في بعض الوسائل .

دعوة واحدة ، تنزلت من إله واحد ، لعالم واحد ، تماقت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء ، وتماقت أبنياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ، ليكونوا تعبيراً متطوراً لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال ، من غير نقص فيها ولا زيادة ، لأنها دعوة أزلية أبدية منذ خالق الله الخلق إلى أن يجمعهم في ساحة رحمته وعدله .

موسى ... وعيسى ... ومحمد ...

هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية لا يختلف أحد منهم عن أحد في مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها ، وإنما اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبي منهم إلى عهد نبي ، فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبي ، والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد . . .

معنى لم يفتن له كثير من الناس في كثير من العصور ، وفتن له مؤلف هذا الكتاب ، فأضاء مصباحاً قوى الضوء خليقاً بأن يهدي إلى طريق الرشاد .

كتاب عن « محمد » الرسول . . .

خطرت فسكرتة على قلب مسيحي عربي يؤمن بالله ،
ويؤمن بالعقل ، ويؤمن بالإنسانية . . .

— درس محمداً إنساناً . . .

— ودرسه داعياً لدين ، ومرشداً إلى هدى . . .

— ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضارى
فى المجتمع الإنسانى . . .

— ودرسه نبياً ورسولاً . . .

— فأمن إيمان القلب والعقل جميعاً بأنه نبي رسول
بقاب المؤمن ، وعقل الإنسان ، وفكر الباحث ، درس
« نظمي لوقا » حياة « محمد بن عبد الله » ، ثم أفرغ دراسته
موجزة فى هذا الكتاب ، ليكون لبنة فى أساس بناء وحدة
فكرية وروحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد
وبالفضيلة ، وبالمثل الإنسانية ، وبالقيم الروحية . . .

إننا - نحن المسلمين والمسيحيين من أبناء الأمة العربية -
تعرض فى هذه الأيام لكيد شديد يتربص بنا من يمين
وشمال . . .

دعوات آئمة ترد إلينا من الشرق ومن الغرب ، لتتخلى
عن ديننا ، ونتحلل من روابطنا ، ونتنكر لمثلنا ومبادئنا ،
ونكفر بالله الواحد لنعتنق دين « سارتر » أو دين « كارل
ماركس » ! .

الشيوعية الموحدة في الشرق ، والوجودية المنحلة في الغرب ،
تحاولان في هذه الأيام ، متعاونتين أو متنافستين أن تقضيا على
مقوماتنا ، وعلى وجودنا ، وعلى إرادتنا وإنسانيتنا بالقضاء على
ديننا ، وعلى إيماننا بالله الواحد ، لنقع فريسة سهلة لأي المسكرين
المتعاونين على الفساد ، المتنافسين في الشر والمنكر . . .

ونحن — المسلمين والمسيحيين في هذه الأرض المباركة ، أرض
النبوات ، مهبط الوحي ، وطن الحب والسلام والرحمة ، مشرق
الحضارة الإنسانية — لا نريد ولا نريد الله أن تنتكس الإنسانية في
وطننا ، ولا أن يرتكس في الفساد والإثم قومنا ، ولا أن نذل بعد
عزة في أوطاننا ، وديننا هو حصن قوتنا ، وهو درع الوقاية لنا ،
وإيماننا المشترك بالله الواحد هو الذي يعصمنا من الهوان والذلة ،
لأن الله وحده هو الذي نخاف ونرجو ، فلا طاقة لأحد بالسيطرة
علينا ومعنا الله ! .

نحن — المسلمين والمسيحيين — في الأمة العربية .

- نؤمن بوحدة أمة . . .
- ونؤمن بوحدة ديننا مثلاً ومبادئ "للتعايش الإنسانى .
- ونؤمن بأنبيائنا رسلاً لهداية البشر وتقديم الإنسانية ...
- ونؤمن بالله الواحد ونتقّيه فى كل ما نأخذ وما ندع من أمورنا وأمر الناس ، ليكون المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام والمحبة ما

كمال الدين حسين

تطور .. نبيل

بقلم الأستاذ أمين الخولي

إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة
التي تدرك من الدين أسمى معانيه
وأنبل أغراضه .

منذ بضعة وعشرين عاماً أهديت بحثاً عن « صلة الإسلام
بإصلاح المسيحية » إلى العقول القوية ، والقلوب الكبيرة ، التي
تدرك من الدين أسمى معانيه .. إلخ ما يقرأ القارىء في رأس هذا
المقال .. وأردت أن ألفت بها أحرار الفكر ، أطهار القلب ، إلى
أن هذه الصلة بين الدينين ليست إلا أثراً لظاهرة اجتماعية ،
في حياة الدين البشرى ... وأن البحث العلمى النزيه المحايد
هو الذى انتهى إلى هذه الصلة بين الإسلام والمسيحية .. دون
أى رغبة في كسب نحر ، وأى محاولة في إحراز فضل .

ولقد تقلنى إلى هذه الآفاق التى تبدو بسيدة مترامية الأطراف
وأعاد إلى ذاكرتى إهداء كتب منذ نحو ربع قرن ، ومضى بي
إلى ذرى الجلال والكمال وما لفت إليه القارىء من أمثال أولئك
الرؤى .. فعمل بنفسى كل هذا كتاب فرغت الساعة من قراءته .

هو كتاب « محمد . الرسالة والرسول » لمؤلفه الدكتور نظمي لوقا
فإن الكتاب نفسه يحدث عن التطور الديني ، ويمرض
صوراً منه في حياة الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية . .
والمسيحية . . والإسلام ، وينتهي ذلك إلى : أن رسالة الإسلام
جاءت مناسبة تطور البشرية الطبيعي .

على أن من الحق أن أصرح قارئاً بأن جو التطور ليس هو
وحده الذي حفزني إلى الكتابة عما عنونت له هنا بالتطور النبيل ،
بل إن شعوراً قوياً دفاعاً متبعثاً من الكتاب هو الذي أجبرني
أو كاد يجبرني ، على أن أكتب عن هذا الكتاب ، وأبادر فأؤكد
لقارئ أن الذي دفعني أو أجبرني على هذه الكتابة ليس
هو شعور المتدين المتمصب الذي يرى في الكتاب انتصاراً لدينه ،
أو كسباً لنصير جديد من شخص يدافع عنه . . أو حجة
تؤيده ، أو دليل ينهض في وجه معارضيهِ . . كلا . . بل إن الذي
دفعني وأجبرني إنما هو شعور يعضي في عنقه ودفعه ، إلى أن
ينقلني إلى الطرف المقابل تمام التقابل لهذا التمصب والتحيز والحمية
الجاهلية التي تغمر نفس ذى الأفق المحدود ، الغافل عن الوحدة
السكري ، والغاية العليا للتدين الإنساني في كل زمان سحيق مضى
أو بعيد يقبل . . وفي كل مكان ناه من الأرض مجهول ، أو قريب

منها معمور .. وتلك الطبيعة الإنسانية المترفعة في الشعور هي التي
ذكرتني بالإهداء القديم : إلى الذين يدركون من التدين أسمى
معانيه .. إلخ .. إذ تمثل لي في قوة أن الدكتور نظمي نوقا هو أحد
هؤلاء الذين هتفت بهم من وراء الغيب منذ بضعة وعشرين عاماً
في الأيام والأشهر التي عشت فيها أمس الصلة بين الإسلام
والإصلاح المسيحي البروتستانتي .. في نزوع علمي .. صدرت
كلامي في هذه الصلة بالحديث عنه واللفت إليه بكل نزاهته
المحايدة ، ودقته الباحثة .. لقد تمثل لي الدكتور نظمي نوقا أحد
هؤلاء المدركين المرجوئين .. فإنه وهو القبطي الصليبي ، كما يقول
عن نفسه ، يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب
عن محمد الرسول ورسالته ، فيقول من القول المترفع ما لا أجد
بعضه أحق من بعض بالإشارة إليه ، أو بنقل فقرات منه
للقارئ .. فكل كلمة فيه صالحة لهذا النقل ، مستحقة لهذه
الإشارة .

إنه — في بيان جلي — يشرح العوامل التطورية التي سبغت
حياة الأديان الثلاثة ووجهتها إلى أهداف بعينها في دعواتهم .. وبفهم
تلك العوامل التي وضعت كل رسالة من هذه الرسائل في مكانها
من سائر أخواتها .. وينتهي ، على ضوء تلك العوامل المسيرة

للحياة والتاريخ إلى تقرير : أن الإسلام ختام الرسالات السماوية
وقد استغنت به وعنده الدنيا عن توجيه آخر من السماء ..

وفي حب للحقيقة أكثر من حبه لأفلاطون — كما قال أول
كتابه — وفي تمثيل ، بل في تقمص لروح «غاندي» الذي كان يصلي
بصفحات من براهما ، وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن ..
يمضي في شرح مقارن لأهميات الأسس الإسلامية في إفاضة
وصراحة ، ووضوح .. يصورها استشهاد أول ما استشهد بالآية
القرآنية « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » . فإذا كانت مناجاته
الروحية لأبي القاسم وما يترأى له من جوانب شخصيته الجليلة
فذلك ما لا تطيقه النفس البشرية إلا بعد استشراف لدنيا غير دنيا
سكان هذا الكوكب المخلد إلى أرضه ، التهلك على أوهامه ، المتفاني
في سبيل تقاضاته .

يشعر قارى كتاب « محمد الرسالة والرسول » أن باستطاعة
البشرية الترفع المخلق عن ورائياتها ودواسبها الصلبة من أفعال
آلاف الأجيال .. واستهوائاتها العنيفة . وضعفها التهلك أمام
هذا وأشباهه مما يشغلها ، ويحول دون كل استعمال منها .. وهي

حال السكثرة السكثرة ، بل حال السكل والجميع إلا قلة نادرة ..
لا يكاد يكون لها حكم .. إننا جميعاً بكل ضعف بشریتنا لا ندرك
من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء .. والحقد والسخط
على حطب جهنم المخالفين لنا .. وتلك هي الآفة التي صب بها أهل
الأديان على الحياة في كل عصور التاريخ شواظاً من نار ، في محارق
ومذابح .. ومعارك ، من المذهب النقي والعقيدة السليمة على
الملاحدة الهرطقة المتدعين .

إن شيئاً وراء ذلك كله في أعماق نفسى ، وطوايا روحي
هو في الحق الذى أثار ذلك الشعور الدقاع الغلاب فى نفسى عند
قراءة ما وضعت من كتاب « محمد » للدكتور نظمى لوقا .. إنه
حلم باهر قد تراءى للنفس حيناً ما منذ سنين لا تقل عن العشرين .
أذهبت نسمة من تلك النسائم الإنسانية المنعشة في دعوة ترددت
أصداؤها من أقصى الغرب إلى أبعد الشرق تريد أن تستنفر أهل
الأديان إلى أن يجماعوا أديانهم وسيلة من وسائل محاربة البغضاء
والحقد بين الناس ، وقلة تعاونهم على تخليص دنياهم من آفاتهما ،
بما في عقائدهم من خيرية وروحانية .

والى هذا الحلم الجميل الفاتن ، نهبت محاولة الدكتور نظمى
لوقا ، في سبيل التسامح على أوهام البشرية وردت هذا الحلم القديم

ظلالاً من الرحمة ، وخيوطاً من النور ، تتراءى غير ضعيفة في أفق
الأمل الإنساني ، الذي لا يصرفه اليأس مهما تقس حوله الأحداث ،
وتتجسم الفروقات .

إن كتاب « محمد الرسالة والرسول » يرد إلى العقول القوية
والقلوب الكبيرة الثقة في بلوغ الحياة على هذه الكرة المظلمة
إلى ما يسامت أملها في بلوغ القمر ، والدوران مع الشمس ..
إن هذا الكتاب يقرؤه كل ذي عقل قوى ، وقلب كبير ،
من أي دين وأي ملة . بل مع أي إنكار فيرى أن التدين قد ير
على أن يكون ترفماً نبيلاً ، يطهر النفوس ، ويحيي الآمال .. ومن
أجل هذا رجوت في ثقة أن يكون هذا الكتاب تطوراً نبيلاً ..
في نظرة كل ذي دين إلى ما يرحى من خير للدنيا بالتدين .

أمين الخولي

تحية تقدير

بقلم الأستاذ فتحي رضوان

السيد / الدكتور نظمي لوقا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فإني أرجو أن تأذن لأحد مواطنيك ، في الوطن العظيم مصر ،
وفي الوطن الأكبر ، العالم وطن الجميع ، أن يكتب إليك عن
غير سابق صلة أو تمارف .

فإن كتابك عن « محمد الرسالة والرسول » ، كان خير بديل عن
صديق لسكينا ، يقدم كل منا لصاحبه ، شأن الكتاب الناجح
أو الصادق دائماً ، في عقد الصلة بين الكاتب وقرائه .

كما أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك ، أن كتابك حفزني على
تحرير هذا الخطاب لأبك أدت الحديث فيه عن محمد ، نبي
المسلمين وأنا مسلم ، وأنت من المسيحيين ، فتأليف الكتب عن
الإسلام ، من مسيحيين سبقك إليه كتاب كبار من مسيحيي أوروبا
 وأمريكا ولم يروا في ذلك حرجاً وإن كان فضلك أكبر من فضلهم
(٢ - محمد)

جيماً إذ أن ما تذرعت به من شجاعة للإقدام على هذا العمل
الأدبي ، أكثر مما احتاجوا إليه بكثير . فاختلاف الظروف
والبيئات والملابسات . يجعل من عملك شيئاً أقرب إلى المغامرة
والمجازفة بالصلات والصدقات والمصالح . لذلك فإنني أكتب هذا
لأعلن إليك ، أن الطابع الإنساني في كتابك قد مس شغاف قلبي
أكثر من أي شيء آخر فيه على جماله كله . فقد جرى ما سوب
من يحب الناس ويحب الخير لهم ، ويحب الأخيار فيهم ، ويحب
لهم أن يعيشوا متأخين ، صافية نفوسهم ، مشرقة بالود والتسامح
قلوبهم .

ودمت لأخيك المخلص ما

فخري رضوان

مَحْكَمٌ

الرَّسَالَةِ وَالرَّسُولِ

« وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ
لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . »

صديق الله العظيم
(آل عمران)

« و افلاطون حبيب الى نفسه،
يؤكد أن الحقيقة أحب
الى نفسه من افلاطون ! »

أرسطو

الإهداء

الى السائرين فى الظلمة والى من
يلوح لهم - من أنفسهم ! - فجر
جديد ...

وأيضًا الى

الروح العظيم: مهاتما غاندى

الذى كان يصلى بصفحات من براهما ،
وآيات من التوراة ، والانجيل ، والقرآن
ومات بيد هندوسى متعصب ،
شهيد دفاعه الصادق المجيد عن
حرية العبادة لأتباع محمد ..
ظهر لوقا

مفتش

من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور .
ومن يغلق عقله وضميره دون الحق ، يضير عقله وضميره
ولا يضير الحق .

فالنور منفعة للرأى لا المصباح ، والحق منفعة وإحسان
إلى المهتدى به لا إلى الهادى إليه .

وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التمصيب الذميم
الذى يقرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى
لذى البصر . ومن الصمم لذى السمع . لأن الأعمى قد يبق بعد
فقد البصر إنسانا ، والأصم قد يبق بعد فقد السمع إنسانا . . .
أما من اختلّت موازين عقله أو موازين وجدانه ، حتى ما يميز
الحبيث من الطيب ، فذلك ليس بإنسان ، بالمعنى المقصود من
كلمة إنسان .

ويهدى من هذا النهج وجدت من واجبي أن أكتب هذه
الصفحات ، موقنا أن الإنصاف حلية يكرم بها النصف نفسه
قبل أن يكرم بها من ينصفهم . .

وليس الإنصاف مزية لصاحبه إلا حيناً يغالب الحوائل ،
كالعقائد الموروثة ، والتقاليد السائدة . . . أما حين يوافقها
فما أهون الإنصاف ، « ولولا المشقة ساد الناس كلهم » كما يقول
أبو الطيب . وأوشك أن أقول على غرارهِ « لولا المصيبة أنصف
الناس كلهم » .

فما أخرجنا في هذا العالم المضطرب الذي تقسمت فيه الناس
ممسكرات متقاتلة متلاحية من المذاهب والعقائد التي صبغت كل
منحى من أنحاء الحياة أن نسمى للقضاء على آفة المصيبة ،
ونقود الإنصاف . إنصاف الخصم وكأنه صديق ، فالمنصف إنما
يمنو للحق ، ويمنو لنوره في العقل ، فيشهد لنفسه بالفضل
وحسن الرأي حين يؤدي لذي الحق حقه مهما اشتجر الخلاف
أو لجَّ الخصام . .

وما أرى شريعة أدعى للإنصاف ، ولا شريعة أنقى
للإجحاف والمصيبة من شريعة تقول :

« وَلَا يَجْزِيَنَّكُمْ شَفَاؤُ قَوْمٍ عَلَى الْأَلَّا تَعْدِلُوا ! »

فأي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بعبداً دون هذا
المبدأ ، أو يأخذها يدين أقل منه تسامياً واستقامة . . . ؟
أجل ! نعدل ولا نجور ! فذلك حق أنفسنا علينا ، وحق

عقولنا علينا ، وحق ضمائرنا علينا ، قبل أن يكون حق هذا من الناس أو ذاك . . .

وما أرى الشائى يضير خصمه حين يجور فى الحكم عليه ،
إلا كما يفتأ امرؤ عين نفسه كيلا يرى من يسوؤه مرآة . . .
ولست أحب ذلك لأحد ، بل إنى أرى مستقبـل هذه البشرية
منوطاً باحترام العقل وتقصى العدل وإنصاف الخصم ، حتى يرتد
بنو حواء إخوة يختلفون فى مودة ، ويتباعدون إلى تقارب ،
ويفيئون فى نهاية كل مطاف إلى نور الله الذى كرمهم به ، وهو
الحق والعدل . .

وإنى لأسأل من يستكثر الإنصاف على رسول أتى بغير
دينه ، أما يستكثر على نفسه أن يظلمها إذ يحملها على الجحود
والجور ؟ . .

ولست أنكر أن بواعث كثيرة فى صباهى قربت بينى وبين
هذا الرسول ، وليس فى نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتفكر له ،
بل إنى لأشرف به وأحمد له بوادره وعقباه . .

ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئاً من التفهم ، وزين لى
من شخص هذا الرسول الكريم تلك الصفات المشتركة ، وجعلنى
أعرض بوجدانى عن تلك النظرة الجائرة أو المنحنية التى تنظر بها

كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربي ، ولسكنى
حين أحسكم إلى العقل ، أرى الخير كل الخير فيما جنحت إليه .
فلخير من يشوه المشوهون كل جميل وكريم . من مفاخر
البشرية المنحنة بالقروح والخزيات ؟

ولخير من يثلب الثالبون كل مجيد من هداة هذا الجنس
الفقير إلى المجد ، الثقل بالخشاسة والحق ؟

ألا إن كل محب للبشر ينبغي أن يكون شماره دواما :
— مزيداً من النور ! ومزيداً من العظمة ! ومزيداً من
الجمال ! ومزيداً من البطولة والقُدوة !

وبدافع من حب البشرية أفدمت على تسطير هذه الصفحات ،
وسَيَّان بعد هذا أن يقول عنها القائلون : إنها شهادة حق ، أو رسالة
حب ، أو تحية توفير وتبجيل ، فما كان كآحاد الناس في خلاله
ومزاياه ، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل ، وهمة البطل ،
فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل . ويحيي فيه الرجل ..

الدكتور نسطي لوفيا

١٠ ش ابن سينا

مصر الجديدة

١٩٥٩ — ١٩٥٨

صبيّ في المسجد . . .

صبي قصير ، نحيل ، عصبي الملامح ، واسع العينين ، تطل
منهما نظرة تطلع ، وفي ثيابه إهمال ، وفي يديه آثار حبر ، ورباط
حذائه مرسل يكاد يتمثر به وهو يمشي ، وسنه لم تتجاوز السادسة
إلا قليلا . يقطع الطريق جادا مسرعا بعد صلاة العصر بقليل إلى
مسجد في السويس ، قريب من مبنى المحافظة بها ، لا ياولى
على شيء .

ويتمهل الفتى عند دكان الحلاق الذي يواجه المسجد ، ليرى
الشيخ جالسا ، بقامته المفرطة في القصر ، وجبهته المفرطة في
العلو ، وبشرته البيضاء المحمرة ، وثيابه النظيفة الناصعة ، ولحيته
الصهباء التي يخالطها بياض كثير .

ويقري* الفتى أستاذه الشيخ السلام ، ويهش الشيخ للقائه ،
ويده تداعب ساعة جيبه الكبيرة المصنوعة من المعدن ، يفتحها ،
ثم يتحسس عقاربها ، ويغلقها ثم يعيدها إلى جيب قفطانته
الأبيض . . وترسم على وجهه ظلال ابتسامة ، يكاد الفتى يراها

فى موضع عينى الشيخ ، لولا أن هاتين العينين أغلقهما مرض فى
الطويلة الباكرة إغلاقاً أبدياً .

ويقبض على قلب الفتى قابض ، لم تذهب به الألفة المعادة
كل يوم . . وينظر بحسرة إلى صفحة السماء الصافية ، ويقشعر
بدنه ويتهدد .

ما أنكد هذه الآفة . . إنه ليؤثر الموت على هذا الحرمان
الوجيع ، من ومضات النور ، وهمسات ظلاله . . وهى تبدى
أنفه وأشوه المراثيات . . حتى هذه البقية من الروث التى تركها
حصان كان يجر عربة عابرة . . فكل شىء عزيز على العين ، حتى
ولو لم يكن جيلاً مرغوباً . . لأنه يبدى لها نورها .

ويتأبط الشيخ الكفيف ذراع الصبي . وإنه ليضارعه طويلاً
أو قصراً ثم يدب بمصاه عبر الشارع . . والصبي لا يخطئ
نظرات الفضول من الحلاق ، وزبائنه ، وعابرى السبيل . إلى أن
يدخل الشيخ وتلميذه من باب المسجد ، ليبدأ درسهما اليومى
من بعد صلاة العصر ، إلى صلاة المشاء .

فى مدينة السويس الصغيرة ، سنة ١٩٢٦ ، لم يكن أحد من
أهلها يجهل من الشيخ سيد البخارى ، إمام مسجدنا ، وعالمنا
وقفيها . يجلونه ويرهبونه . فإن له لعاماً ورأياً . وإن فيه

لشجاعة في الحق ، وذراية في المنطق ، وأناة تدخله لسيهم
مدخل الكبر الذي لا يغتفر لمن كانت به كالشيخ خصاصة شديدة ،
يدارمها بتجمل أشد .

ولم يكن أحد من أهاليها يجهل كذلك من الصبي الصغير ،
ابن ذلك الموظف النازح إلى السويس ، فيه وسامة وأناقة ، وفي
لسانه عذوبة وذلاقة . . وإنهم ليعرفونه رجلا قبطيًا صليبي . .
يؤم الكنيسة يوم الأحد .

وفي مدينة كالسويس يتسائل الناس عن الفارحين إليها
والغرباء من الطارئين . وهم يعرفون أن لهذا الموظف والد الصبي
أرومة معرفة في صناعة القسوس . فكم له من جد من ذوى
الطيالس السود والعاهم السود . . فلا شك إذن في قبطية هذا
الصبي الذي يروونه كل يوم يؤم مسجدهم الحنيف مع الإمام العالم
الشيخ . . وأن الخبرة لتستبد بهم ، ثم تأخذهم نافلة من الغيرة ،
يتهامسون بها فيما بينهم ويتناجون . ومن أمّ منهم المسجد لصلاة
المغرب ، رأى الشيخ ينفض يده من درس الفتى في مؤخرة
المسجد ، ويتقدم فيؤم المصلين ، ثم يعود ليصل من الدرس
ما انقطع . والفتى ينظر إليهم مصلين ، ويسمع لما يتلى في الصلاة ،
وفي عينيه ذلك التطلع القلق فنههم من يزور عنه ، ومن يحملق
فيه بفضول .

وخرج بعضهم من النجوى إلى العلى ، فجاهر الشيخ بما فى نفسه ، وراجمه فيما يفعل . فإن كان حباً للتدريس فقيم رفض التدريس لابن فلان وفلان من الوجوه على ما بذلوا له من مال وفير ؟ . . وإن كان حباً للمال ، فقيم خطبه التى يحارب بها التقرب للأولياء ، وتقديم النذور ، ورفع صندوق النذور من مسجده ، وقد كانت له من ذلك حصيلة طيبة إن شاء ؟ .

ويغضبها الشيخ غصبة لله وبيوته ، ولسماحة دينه ، ويبدى من ذلك ما يفهم سامعه . ولكن السامع ينهض غير قانع مما سمع . لأن حجة العقل لا تقنع القلب . والقلوب التى لا يعمرها نور الحب ، لا تستجيب إلا للأثرة ، والأثرة تتفدى بالعداء لا بالولاء .

ويضمم الشيخ فى نفسه أمراً ، فإذا كان الغد أرسل إلى ذلك المعارض أن يوافيه بعد صلاة العصر لأمر . ويحضر الرجل وقد عقد مجلس الدرس بجوار عمود المسجد ويستمهله الشيخ قليلاً ريثما يفرغ له . ويتابع الدرس . وكان موضوعه تفسير سورة الضحى . ويتلو العصبى السورة بلسان قويم ، وإيقاع سليم . ويختمها : « صدق الله العظيم » . ثم يشرع فى تبين معانيها ، مستشهداً بسيرة الرسول الكريم . والشيخ يناقشه حيناً ، ويوجهه حيناً آخر ، ويستوضحه حيناً ثالثاً . . حتى إذا بلغ الموضوع غايته . . وجه الشيخ الكلام إلى صاحبه الزائر قائلاً :

- كيف بنوك يا فلان ؟
— بخير يا مولانا .. يقبلون الأيدي ..
— تعرفني يا فلان أمقت تقبيل الأيدي وأخذل عنه الناس ..
أعرفت فيم أرسلت إليك ؟ ..
فأطرق الرجل وقال :
— عرفت يا مولانا .
— انصرف راشدا ..

ونفض الرجل محييا . وتحرى أن يمسح الصبي الصغير في
مودة سابعة أشبه شئ بالاعتذار ..

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم — وكان ساعاتيا له دكان قريب
من المسجد — يستقبله بالتحية التي يأتي بها الشيخ ، كلما مر به
قادما أو منصرفا .. ويكاد يلمس في صوته وإيمائه هزة الخشوع .

وكان والد الفتى — أكرم الله منواه — شديد الولوع
بالفساحة والفصحاء . اتفق له شئ من قرض الشعر في صدر
شبابه . وآمن أن واده المبكر ينبغي أن يصيب من ينابيع الضاد
وبلاغتها أكبر حفظ مستطاع . ورأى هزال ما يتاح لطلاب

المدارس من ذلك كله فعهد بولده إلى ذلك الشيخ الذي التقى به في
دكان الحلاق فبهرتة منه شخصية مشرقة ، وذهن رحب ، وسماحة
ما كان يتوقعها في أحد الأشياخ فقد سمعه يستشهد أمامه بآيات
من الإنجيل وهو في حديثه الدارج مع الناس من حوله لا يجيد
عن الفصيح من اللفظ والجزل من التراكيب فسكأنما خرج الشيخ
لِتَوَّه من سوق عكاظ ! وهم الشيخ أن يمتد بزهد في التدريس ،
لولا أن الوالد ذكر له أنه أقرأ ولده كليلة ودمنة قبل أن تسمح
سنه بدخول الدراسة الابتدائية . وأن الفتى — وهو أصغر
طلاب مدرسته وأقصرهم قامة — وجد نفسه في مؤخرة صفوف
الفصل في أول يوم . فرفع يده وقال للمعلم — وكان معهما —
بلغة فصيحة :

— أريد أن أجلس بجوار السبورة ! ..

فضج التلاميذ بالضحك ، وقال المعلم ضاحكا .

— لك ذلك أيها الفيلسوف العجبر ! .

فذهبت مثالا ! وصارت هذه كنيته بين أترابه وأساتذته ،
لأنه يأبى أن يحدث المعلمين إلا باللغة الفصحى ..

— واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن ، وتهذب نفسه
بالمعانيات وعيون الشعر ..

فأخذت الشيخ هزة وقال :

— أما وأنت لا تريدني على تدريس تلك المناهج السقيمة
والخوض إلى تلك المدارك الضحلة فهذا مطلب تطيب به نفسي
وينشرح له فؤادي .

— والأجر ؟ ..

— أمره لك .. وأكبر جزائي أن تزهو للعربية شجرة مشمرة
في قلب فتى أريب ، في زمن أوشك اللسان العربي القويم فيه أن
يمز وجوده كالكبريت الأحمر ! ..

ووجد الفتى في أستاذه المكفوف خزانة أدب وعلم وفتة
وفلسفة .. وخلق ! ..

كان الشيخ يحفظ أشهر دواوين العرب وعيون الخطب ..
وكان التعليم بالضرورة شفويًا . ولا بد فيه من ضبط مخارج الحروف
 وإقامة النصوص ، وتجنب اللحن ، وتوخى الجزالة ، فتعلم الفتى أن
يتكلم وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وبدأ الفتى يحفظ القرآن . ويقف عند كل آية ، ويملى عليه
الشيخ موجزاً لتفسيرها ثم يملأ عليه ما يتطرق إليه ذهنه بالخصب
بصندها من الأمثال السائرة والشعر المشهور . فتعلم الفتى كيف
يربط المعنى اللغوي بالصورة الجمالية والذوق الأدبي .

وخرج الفتى مبرزاً في امتحان نصف السنة وأتى شيخه فرحاً
مرحاً ، فجعل الشيخ موضوع درسه ذلك اليوم بيتاً من الشعر
الحكيم ، ثم آية من القرآن الكريم . أما البيت فهو :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وأما الآية فهي : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ
إِنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ! »

وكان على الفتى أن يعالج الموضوعين بلسانه ، والشيخ يستدرجه
ويحاوره على سفة سيدنا «سقراط» عفا الله عنه . . إلى أن وصل
إلى غايته من تصغير الغرور إليه .

وأثناء بعد ذلك بأيام حزينا مغيظاً ، فقد دعاه أستاذه إلى السنة
النهائية وطلب إليه أن يصحح — وهو التلميذ بالسنة الأولى —
خطأ طالب طرّاً شاربه وأوتى سطة في الجسم ، بعد أن عجز كل
تلاميذ العرقة النهائية عن ذلك التصويب ، فأجاب بداهة ، وأمر
الأستاذ التلاميذ جميعاً أن ينهضوا له واقفين ويحيوه تحية التعظيم
فقموا صاغرين . . حتى إذا انقضى اليوم المدرسي ، تربصوا له
بالباب وأحاطوا به وخطفوا طربوشه وجملوا يتناقضونه بالأرجل
وصبوا على الصغير سخريتهم وآذوه باللفظ واليد ، حتى تمزقت
ملابسه واحرق قفاه . ولولا أنفثه الشديدة لفاضت عيناه .

ومض الشيخ على نواجذه ثم قال :

— الموضوع الذي سنجعله مدار حديثنا اليوم هو : « آية
الفضل أن تمادى وتحسد » و :

كل المداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد
وتشعب الحديث وتطرق إلى فنون من الفكر والشعر، حتى
إذا انتهيا إلى قول أبي الطيب :

وإذا أنتك مذمتى من ناقص فهي الشهادة لى بآنى كامل
استشعر الفتى العزة بعد الذل ، والكرامة بعد الهوان . ولما
آنس منه شيخه أن جرح كرامته قد التأم ، انتقل إلى جرح من
نوع آخر : إلى جرح أحدثه الحقد ، ونزعة فطرية إلى التآر ،
فقال للفتى :

— أريد أن تعد لمجلس الغد قول أبي الطيب :

وأنتب من ناداك من لا تجيبه وأغيط من عاداك من لا تشا كل
وأيضاً قول المسيح عليه السلام : أبت اغفر لهم فإنهم
لا يدرون ما يفعلون !

أمن عجب بعد هذا أن يكون الشيخ ملاذ الفتى فى كل مله ،
ونبراسه فى كل مدلهمة ، وقدوته التى يأتى بها عقلا وقلبا
وعاطفة وضميراً ؟ . . .

لقد أصبح الشيخ القزم عملاقاً ، وسكن إليه الفتي واطمأن ،
وأخذ نفسه بأدبه وفضله . أمره الأمر ، ورأيه الرأي ..

وذات يوم أتى غلام صغير إلى المسجد يلتبس الشيخ ، فعرف
فيه الفتي خادم أستاذه . فقال له :

— « الولد » حضر يامولانا .. الولد خادمك .

فأشاح بعنقه كمادته حين يضيق بشيء سمعه . وأدنى الغلام
وتساراً برهة ثم انصرف الغلام . وعندئذ قال الشيخ :

— ما هكذا يكون أدب السادة أيها السيد ! كان الرسول
صلى الله عليه وسلم يقول فتاى وفتاى ولا يقول عبدى وأمتى ..
وانطلق يوبخه بما كان للرسول وصحابته من أدب رفيع في
معاملة خدامهم . ثم قال له في حزم :

— أرجو أن تفكر حتى غد ، وعندما تخلو إلى نفسك في
المخدع ، ماذا لو كنت مكان أحد ممن تسميهم خدماً ؟ فإنه مثانا
ابن أب وأم . والدهر الذي جار عليه جار على سائرنا .
وأحب أن تفكر في قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكه أناخ بأخريتنا
وأرق الفتي ليلته وقد تصور أباه هلك كما يهلك كل حي ،
وتصور نفسه يتلقى الركل والسباب والإهانة خادماً في بيت كبيته

هذا . وطار قلبه شعاعاً . وما استيقظ حتى تعمد أن يكون بالخدام
في بيته رفيقاً رقيقاً . ولما رأى أمه تسبه وهي تتمجّله قضاء حاجة
تاربها ، وأسمعها طرفاً مما وعاه من آداب الرسول وصحابه في
هذا السبيل . فاحتقن وجهها وأنت أياه فأخبرته . ووعدا أن
يكون له مع الشيخ حديث في ذلك النهار .

ولما حل العصر ، قيل للفتى : إنه لادرس اليوم ، وذهب الوالد
فاقى الشيخ وقال له : إن بالفتى ومكة . ثم تطرق الكلام إلى بيت
القصيد ، وأدرك الشيخ مراد الرجل ، فقال محتدأ :

— هل ترضى مني أن آخذ ولدك بغير الأدب الأكل والنهج
الأفوم وأن أعرف الحق وأحيد به عنه ؟
— بل لا أريد . .

— وإن أردت أنت فاني أريد ! لأن ذلك هو الغش البين .
فهل تراك أخذت على الدهر ميثاقاً وقد عجز عن ذلك الملوك
والسلطين وأصحاب الملايين من قبلك ؟

— ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض
درجات . .

— ويداول الدنيا بين الناس ! ثم أما قرأت كتابك ؟ ألم
تجد فيه أن المسيح عليه السلام - ورأيكم فيه ما تعلم ! - غسل

أقدام حواريه ؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وإنما التفاوت
عندنا حين نفرط في لباب الدين لتتعلق بزخارف الدنيا .

وأعاد الرجل على زوجه حديث الشيخ ، وأذن لها أن الفتى
مستأنف درسه منذ الغد : فما كان ليحبسه عن رزق من الحكمة
الرفيمة أتاحه له الله في صورة هذا الشيخ .

— وإني يا فلانة لأستحي — والله — أن يظن الشيخ بنا
دون هذه الآداب .



وكأنما همس الممامسون في آذان الأبوين كما همس هامسون
من قبل في أذن الشيخ . . ولعل غيوراً من أهل الخذلقة قال لها :
— كيف تخاطران بالفتى هذه المخاطرة ؟ فإنه يخشى أن يفتنه
الشيخ عن دين آبائه .

ووجد الفتى أبويه يقرآن له فصولاً من الإنجيل كل يوم .
ويرسلانه إلى الكنيسة يوم الجمعة . وجعلت أسرار العقيدة تصب
في دماغه صباً . فاستمعى منها على ذهنه ما استمعى ونافس
فقليل له : إن الإيمان في التفكير يسوق إلى الكفر ، وأن
النافسة سبيل الشك . ومن دخل الشك قلبه فارقتة نعمة الإيمان ،
وبغير نعمة الإيمان يهلك المرء ولا يدخل ملكوت السماء .

والتمس الفتى عند شيخه الهداية ، فتخرج الشيخ أن يطرق الموضوع ، بيد أنه حدثه عن العقل . وأنه الإمام الذي أنعم الله به عليه . وأن الدين المتين يقوى بالتفكير والتعقل . وأن اليقين الذي لا يصمد للشك يقين زائف . والمطمئن إليه مخدوع كمن يشيد بيته على الرمال . . . وحدثه الشيخ في ذلك اليوم عن رجل سمع به حينئذ لأول مرة ، وكان لاسمه ونهجه أثر حاسم في حياته من بعد . حدثه عن « غاندى » . وكيف يصلى بأى من القرآن والإنجيل والتوراة والبرهانبورا . وحدثه عن متصوفة الإسلام ، وعن محي الدين بن عربي . . وكيف أن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور .

— اقرأ يا بنى "كتابك بنفسك . واحتكم إلى عقلك ، واعلم أن كل دين ينهى عن قالة السوء ، وعن فعل السوء ، وعن تفكير السوء

وسمع الفتى بعد ذلك واعظاً مشهوراً حضر إلى المدينة واحتشد القبط لسماعه احتشاداً مشهوداً ، فإذا بعظاته كلها تنديد بطائفة البروتستنت ، سماهم الذئاب الخاطفة ، وحض على اختصاصهم . فلا يحل لقبطى أن يصافح منهم أحداً أو يرد عليه السلام . . . وصورته الخيلة الناشطة له أولئك الناس ذوى أنياب

كاشرة ، ومخالب كاسرة . وذهب إلى شيخه بذلك الحديث فزعا .
فاغتم الشيخ وقال :

— أوائق أنت مما سمعت يا بني ؟ .

— كل الثقة يا مولانا ..

— أعوذ بالله ! إن مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة
ولامراء ! .. فالمسيح الناصري يقول : أحبوا أعداءكم وباركوا
لاعنيكم ! .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! إفرأ ! إنجيلك يا بني
وافتح له بعيرتك .. واصدد عن مفسري السوء ما استقطعت .

ووعى الفتى درس شيخه ، فتزوج بعد عقد ونصف إحدى
بنات « الذئاب الخاطفة » المزعومين !

* * *

وحفظ الفتى القرآن لتسع ، ووعى المماقات وديوان الحماسة .
وقرأ اللزوميات . وافتتن بأبي الملاء والمتنى على وجه الخصوص
وأصبح وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين آلف لديه من عشرائه .
يكاد يقدس ابن الخطاب وابن أبي طالب . والشيخ من وراء ذلك
كله أعز عليه من أهل الدنيا جميعاً .

أتاه ذات يوم باكياً . فسأله ما به :

— سمع يا مولانا .

— رحمة الله على الزعيم الجليل ! ماذا ذكرتك به ؟ . .

— ليس سمعنا هذا . . بل الآخر . .

— ومن ذاك يرحمك الله ؟

— هو كبش كنا نربيته في البيت . . غافلون وذبحوه للعيدا . .

ولما بكيت سخروا مني . . ولم يكفهم أن يأكلوا منه .

فأرادوني — وألحوا — أن آكل منه مثلهم . . فأبيت . .

ولم يضحك الشيخ بل رق للفتى رقة واضحة .

— ولماذا يسخرون منك ؟ لقد بكيت من أحبت . . !

— أليس كذلك ؟ . . وقالوا حرام ألا تأكل مما أحل الله .

— ليس حراماً أن تحب شيئاً خلقه الله .

— وقالوا أتحب خروفاً كأنه أخوك ؟

— الحب يا بني شيء جميل جليل . . ولو كان لشيء تافه

ضئيل ؛ ألا يحب الواحد منهم أصصاً من الزهر ؟ . . أو حلية من

الجوهر ؟ . لا تثريب عليك فيما أحبت . . فليست قيمة

الحب فيما نخبه ، بل في حبنا له . . وإن لك لقلبا سخيا

وفؤادا ذكيا

وأصبح الشيخ أقرب إلى الفتى من آله وذويه ، بهذا الفهم ،
وهذا الحس .

وأصيب شقيق الفتى في مهده بمرض طويل ، أكل علاجه
الأخضر واليابس ، ثم مات فركب الأسرة دين وسافرت أم الفتى
— وهي حامل في شهرها الثامن — إلى القاهرة تطلب من أمها الثرية
حفيدة القسوس جزءاً من حقها القانوني في وقف جدتها . وكانت
أم الفتى وحيدة أمها . ولبثت الأم في سفرها ثلاثة أيام أحس
الفتى فيها بالوحشة . ثم عادت الأم من سفرها خاوية الوفاض ،
دامعة العين . وقد أبت عليها أمها الثرية حقها ، وهي بين الشكل
والحل والحاجة مهبط الجناح مضطربة النفس .

وقررت الأسرة أن تضغط المصروفات كلها لمواجهة الأزمة .
فانتقلت إلى بيت أرخص أجرا وقطعت تيار الكهرباء واستغنت
عن الخادم والغاسلة . وأقبلت الأم الحبلى تعمل بيديها كل شيء .
حتى الخبز ! .. فحز ذلك في نفس الفتى الذي يكاد يعبد أمه من
دون الله ..

وتقرر فيما تقرر الاستغناء عن الدرس . وكان الشيخ قد
عرف طرفاً من ذلك الحديث من الفتى الذي لم يكن يطوى عنه

أشجانه . فإذا به يسكت عندما فاتحه أبو الفتى فى انقطاع ابنه .
وينصرف الأب إلى داره ، وإذا بالبواب يطرق بعد قليل . وإذا
بالشيخ الضرير يقوده صبي الحلاق . ويبادر الوالد قائلاً :

— ما أظنك تأبى أن أكون أنا ضيفك كل يوم ساعة
أو نحوها .

وعرف الفتى أن الشيخ عازم أن يستمر الدرس ، بغير مقابل ،
وأن تلاففه شاء له أن يكون هو الساعى إلى تلهينه صونا لعزته
وزيادة فى مروءته .

ولم يسع الفتى إلا أن يقارن فى نفسه بين فعل جدة تنتمى
للمسيح وتتصدق باسمه . وبين فعل شيخ يصلى بالناس على محمد
وآله خمس مرات فى كل يوم . . .

ليس البر وقفاً إذن على دين دون دين .

* * *

وفى العاشرة رحل الفتى عن السويس ، ولم ير الشيخ بعدها
ولسكن الشيخ ظل قائماً فى عقله ونفسه ولسانه . . فقد صاغ الشيخ
فى الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل
وتقديس العقل وشجاعة الرأى . .

الآية الكبرى

وقرأ الفتى كتبه . وأعاد قراءتها في الحين بعد الحين ، فقد كانت وثيقة الصلة بأزمة وجدانه وعقله وهو يقبلهما بين السماء والأرض . لا تسكن نفسه من شك ، ولا يسكن عقله من تطلع .. وأعياء عقله أن يوجد تفاوتاً في نسق السكتب الموحى بها وسياقها . فهي — بلا استثناء — تنتهي إلى ضرورة الإيمان الذي ينبع من القلب ويفرض أضواءه على كل معتقد بدين .

وهنا وقف الفتى الذي درج إلى الشباب وقفة لم يكن منها مناص : إن تكن هذه الأديان صحيحة ، فبأى حجة وبأى مقياس يمكن الطمن في صدق رساله محمد ؟

مامن نبي حمل إلينا توكيلاً موثقاً بأنه ينطق بلسان الوحي . وإنما كانت آيته صدق ما أتانا به . . وأما المعجزات فلاحجية لها إلا لمن شهد شهود العيان . . وبيننا وبين ذلك أجيال وأجيال . فتتبقى بعد هذه الآيات المغيرة الآية الكبرى التي لا يثبت بغيرها صدق ، ولا يغنى عن غيابها ألف دليل مغاير ، مهما بلغت درجته من الإعجاز . وهذه الآية الكبرى هي صدق الكلمة من حيث

هى . فإن الحقيقة آية نفـها، تحمل برهانها فى مضمونها ، فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يباينها هزىلا واضح البطلان .

إن موقف الناس من الوحي واحد أيًا كانت الرسالة الوحي بها والرسول المخبر عنها : لم يطلب أحد من رسول قبل محمد برهاناً عياناً على وحيه كى يطالب به محمد . فمن اعترف بوحي السماء إلى رسول من البشر ، لزمته الحجة ألا ينكر نزول الوحي على محمد من حيث المبدأ . فوجه الامتناع هنا غير قائم بمبرر نزيه .

ولا يتبقى بعد سقوط الاعتراض على الوحي من حيث المبدأ ، إلا النظر فى مصموم ذلك الوحي . فإن كان هذا المضمون حاوياً آية صدقه فى ذاته . وليس فيه ما ينقض طمأنينة العقل أو يريبها ، فلا مفر من الإقرار بصدقه .

ومن هنا وجب النظر النظرية فى رسالة محمد ، والبحث فى مضمونها ، لنلقم فيها آيات الصدق التى يصدق الناس بمثلها من سبقه من المرسلين ، وانرى هل فيها ما يدعو للريب ، ويبرر دمعها بالزيف أو الدجل أو البطلان .

ذلك هو الحد القوام الذى لا افتئات فيه على إنصاف ، ولا ينبغى أن يحيد عنه من له فى النزاهة مطمع .

إن السلامة الأصلية هى التى تؤدى للناس مالا تؤديه سلعة

أخرى وإن كانت تشبهها في بعض الوجوه . وليست تقليداً أو
تزييفاً لسلعة سابقة عليها . . بحيث يكون غيابها نقصاً واضحاً
لا محل فيه للإنكار .

عرف الناس السفينة ذات المجداف ، وعرفوا السفينة ذات
الشرع . ثم عرفوا السفينة التي تسير بالبخار . وكلها سفن ،
ولكن الخلاف بينها واضح فيما تؤديه للناس من خدمات .

كذلك العقائد والأديان . كلها عقائد غيبية . تحدد صلة
الإنسان برب هذا الكون . ولكنها تتباين بوجه من الوجوه . .
وهذا تلميح توالى الديانات والرسالات السماوية مع أطوار البشر
ومستويات إدراكهم ووعيهم العمراني .

لزم إذن أن يكون لكل ديانة طابعها المميز الخاص بها . وأن
يكون هذا الطابع المميز هو « سبب وجودها » أو موضوع وجودها .
فهل للإسلام هذا السبب ؟ وهذا الموضوع ؟

وبعبارة أخرى . أن الوظيفة تخلق المضمون . والحاجة تخلق
السلعة . فإن تحدد بعد الأديان السماوية السابقة للإسلام موضوع
معين أو دور معين لعقيدة سماوية تحدد احتياجات التطور
البشرى ، ثبت أن ظهور ديانة جديدة لم يكن تعسفاً أو فضولاً
أو اصطفاً لجأ إليه مناصر أفاق . .

ثم يلزم النظر في الإسلام . وهل جاء مؤدياً لتلك المهمة
والرسالة ؟ فإن صح ذلك ، كان عقيدة صحيحة جاءت في ميقاتها
الطبيعي لتقويم بدورها أو وظيفتها المهيأة لها بأطوار العمران البشري
إن كل من آمن بالأديان ورسالتها . وبالعقائد ووظائفها ،
لا بد له من اتخاذ هذا المقياس الموضوعي الذي يعدل في النظر
إلى العقائد بعامة وإلا كان محض وارث لعقيدته متمسب لها
عصبية عمياء .

وما على الذكر إلا أن يبين لنا مقياساً آخر نعرف به وظائف
العقائد ويفسر لنا تواترها وتعاقبها على مرور الأجيال قبل
دهوة محمد .

إن قال بالوحي هنالك ، فما هو دليلك على صدق وحي من قبل
محمد ، بحيث يفتقر وحي محمد إلى ذلك الدليل ؟
لم ير أحد ملك الوحي هابطاً على من قبل محمد ، حتى يطالب
بظهور جبريل وهو يهبط بالوحي عاينه .

وإن قال : إن الديانات تعاقبت بغير علة لهذا التعاقب من
مضمون الرسالة ومؤداها ، فقد نفى الحكمة من التعاقب ، بل نفى
الحكمة من الدين عامة . فإن الشرائع التي تتكرر بغير تعديل قول
معاد ، في غير حاجة إلى إعادة .

فإذا تذكرنا أن البشر يتطورون ويتقدمون في وعيهم
الممراني ، كانت الإعادة المكررة تقصيراً . فلا يبقى إلا أن
الشرائع السماوية تسير البشر في تطورهم ، كما أن غذاء الإنسان
يسير المرء في تدرجه من الرضاع إلى الطفولة واليفاع والكهولة .

وهذا يردنا إلى تمايز الرسائل الدينية ، وتفرد كل منها
بخصوصية هي موضوع وجودها أو هي وظيفتها .

ولا يبقى بعد ذلك جاحد لهذا الموقف إلا من يقول : هذا
رأي وكفى ! .. ومثله لا يعول له على رأي ، لأنه مكابر بغير
عقل ، فلا يستحق أن يتجشم خطابه أو إقناعه ذو عقل .

دين شعب

دين بني إسرائيل ، وإن كان دين توحيد وتثنية ، قد اختص به شعب معين دون سائر الشعوب ، فهو إذن ليس الدين الذي يهتدى به الناس كافة ، ويجدون فيه شبع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة .

والدين الذي يختص به شعب بمينه لا بد وأن تتمثله سريرة ذلك الشعب ، فتكون سيرتهم في العمل به كسيرتهم أصلاً ، بحسب عقليتهم وفطرتهم وطبيعتهم . وكان بنو إسرائيل من قبل قوم أوثان وتعدد وتجسيم . وكانوا أشقانا في الأرض ينزلون هنا وينزلون هناك على شعوب غريبة ، فينفسون على أهل البلاد الأسلاء أن لهم وطناً وبأساً وسيادة وغلبة .

والناس منذ قديم يلتمسون في أربابهم النعمة أو قوة السلطان والقدرة على المعونة . فالتسوا في الإله الواحد أن يختص بهم ، لا يعبد أحد سواهم . وأن يغلبهم من عداهم من الخلق ، وأن يمكن لهم في أرض العباد ورقابهم ...

والدين — من حيث هو دين شعب — حرى أن يعنى بسن
القوانين فى المعاملات وأن ينهى عن التجسيم . فتعوضوا عن
أهدافهم التى صدم عنها أهدافا أخرى . فأقاموا الهياكل
كما تقيم الأمم الوثنية الهياكل لأربابها . ولىقصدوا القرايين
والذبايح كما كان يقدمها عباد الأوثان ، مع فارق واحد هو أن من
يتوجهون إليه بقرايينهم وشعائرهم فى تلك الهياكل والمذابح هو
الإله الواحد الخالق القادر . . إله إسرائيل .

ثم أسف الشعب المسف بالتوحيد نفسه حتى جعلوا الأوثان
فى بيوتهم ، يسمونها « الطرافين » . وحتى أقيمت لصنم البعل
وغيره مذابح فى قلب هيكل سليمان .

وشعب هذا شأنه لا يصد عن الإسفاف والانتكاس إلا
بالتخويف وهزيم النذير بين يدي عذاب شديد . فامتلات أقوال
أنبيائهم المتعاقبين بهذا التحذير والتهديد حتى صارت الصفة
الغالبة للإله الواحد عند بنى إسرائيل أنه رب الجنود . وأنه
القوى المنتقم الجبار الغضوب .

ذلك كله يصور سريرة ذلك الشعب ، ويطلعنا على ما تصير
إليه عقيدة التوحيد والتنزيه إذا صارت إلى قوم تملأ قلوبهم
المنافع والحرص على الدنيا . فهم لا يبنون رضوان الله خالصة

لوجهه ، ولا يعبّدونه خالصا لوجهه ، ولا يجاونه عن هذه المراسم
المادية في تقديم القرابين والذبايح . إذ لا وجود في إخلادهم إلا
للمادة وما يتفرع عليها . أما الروح والضمير . أما النظرة الشاملة
لبني الإنسان كافة . أما الإخاء الذي يربط الأحياء برباط واحد
هو رباط الوجود الحى . فذلك وعى لم يكن لديهم إلا مطموسا .
فلم يكن همهم من الدين إلا تشريعا في المعاملات يستحلون
به أموال سواهم من الأمم وطقوسا في العبادة هي أيضا ضرب
من تشريع المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات .
شغى عبادة في مقابل مؤازرة على عدو . أو زيادة في إدرار الرزق .

دين قلب

ولكن العقيدة حاجة روحية أصلا . فلن تطول القناعة
بالعمود دون التحليق ، ولن يطول الطور الذي يكتفى فيه بعقيدة
يختص بها فريق من الناس دون فريق . فليس للروح والضمير
وطن ولا جنس . والعقيدة التي يقنع بها الضمير وبطمأن إليها
لا بد أن تفتح الباب لجميع الشعوب ، وأن تفتح على الخصوص
أمام الناس آفاقا عالية ، تنجيه خلالها الروح إلى الله ، لأنه
المرهوب الوهاب ذو الأيد والمنة فحسب ، بل لأنه مصدر الحياة
والوجود والمثل الأعلى والمطلب الأسمى للاعتقاد ، تنجيه إليه
النفس مشوقة غير مسوقة ، ولا تستغنى بالمراسيم والمجسمات
المحسوسة عن الغبطة بتأمل ذلك الكمال الأبدى المطلق الذي
لا يتجسم ولا يدرك بالحوس . ففي الاتجاه إليه سبحانه سمادتها
الكبرى .

وبهذا ، كان الطور الطبيعي للإنسانية أن تتطلب الهداية ،
في رسالة المسيحية التي لا تدعو إلى التوحيد والتنزيه فحسب . بل

تجعل الله المعشوق الأسمى الذي يتجه إليه وجدان كل إنسان ،
فيتلاشى من فانيه حب كل معشوق سواه ، ولا يبقى للحس وجاهه
سلطان على قلب ذلك المحب ، ولا الطقوس قيمة . لأنه إذا حضر
المحبوب لم يكن لتلى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى .

وأعنى بالمسيحية هنا ما جاء به المسيح من نصوص كلامه ،
لا ما ألحق بكلامه وسيرته من التأويل .

فالمسيحية بهذا الاعتبار هي دين القلب الإنساني من حيث
هو كذلك ، بعرف النظر عن الفوارق الإقليمية والشموبية . .
ولهذا نجد دعوة المسيح خالية من المراسم والطقوس ، كما
خلت من تشريع المعاملات ، لأن موضوع المعاملات والحياة
الدنيا برمتها لم تدخل له في حساب بشقيها من مال وقصاص .
ولكن البشرية لم تنضج لهذا الدور نضوجاً واحداً متساوفاً .
لأن عقيدة القلب الخالص من كل علائق المادة هي بطبيعتها عقيدة
الأفراد الأفذاذ . أما السواد من الناس ، فالحس على قلوبهم
أبدأ سلطان غير محجود ولا مردود .

لهذا بقيت المسيحية في حقيقتها دين قلة من الأفراد ميسرين
لها . وكانت تبيجتها المنطقية تلك الرهبانية المنعزلة عن الدنيا
ومعاناتها . أما السواد من الناس فراحوا يلبسون أوثانهم الحسية

وعقائدهم المادية طيأ الس العبادة الجديدة ، فتمثلوها كما تصوروا لهم
عقولهم . وإطمانوا إلى هذا التصوير .

ولهذا لم يسقط السواد الارتفاع إلى المستوى الروحي العالي
الذي هو مضمون دعوة السيد المسيح .

ولم يسلموا — لتعلق قلوبهم بالدنيا وغشيان السادة وسلطانها
على تفكيرهم — من ظهور عقايل التجسيم والتنطس في المواسم
تتخذ عناوين الدين الجديد وتزييا بزيه ، لأنها نظم تقابل حالات
النفس التي لم تنضج بعدُ لدعوى الروح الخالصة من قيد
الجسد وشهواته وأوهاته .

دين البشر

ولم يزل الناس بحاجة إذن إلى عقيدة جديدة ، يجتمع إليها العقل والقلب جميعاً ، وتصحيح ما تَرَدُّوا فيه من الأخطاء في تفهم ما سبق من عقائد ورسالات .

إن الناس بحاجة بعدُ إلى دين يؤكّد وجود الله ، وأنه خالق الخلق ، وأنه الكامل المنفرد بالسكّال ، بيده الأمر ، وهو على كل شيء قدير . ويؤكّد وحدانية الله توكيداً يقضي على عقابيل التعدد في تصور الإله . . . ويلزم كذلك أن يؤكّد هذا الدين التنزيه لله ، حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذي طالما وقعوا فيه بعد كل دعوة للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم .

هذا من جهة مضمون العقيدة الجديدة .

أما من جهة موقفاها من الناس . فينبغي أن يتجه الدين الجديد إلى الناس كافة . لا فرق فيهم بين شعب وشعب ، ولا بين جيل جيل ، ولا بين طبقة وطبقة .

وينبغي كذلك أن يكون في هذا الدين الجديد مقنع للممتاز

الميسر لأشواق الروح ، وأن يكون فيه كذلك لصاحب الدنيا
ملحظ يلفته إلى آفاق الروح ، وشعره أن ثمة ارتباطاً بينها
وبين السعى في سبيل الدنيا ، فيوجد لهذا السعى مدداً من شايين
لا يحقر في عينيه مطالب الحياة ، ويجعل في قلبه موئلاً للشسور
بالرضا والكرامة ، لأنه استطاع أن يكون صالحاً وهو من هل
هذا العالم الممتين بأموره ومهامه ومطالبه .

لن تكون الحياة الدنيا في هذا الدين الجديد رجساً ، بل هي
من ملك الله وطيبات نعمائه . فالله صاحب الدنيا كما هو صاحب
الآخرة . وهو سبحانه خالق الحس بما يفرضه من دوافع الحياة
ومطالبها . وهو فاطر طلبها في النفس . . . وإنما هي الحدود
الشرعية يفرضها الله في دينه فإذا السعى في سبيل الدنيا على سنن
تلك الحدود وقد أمسى تحصيلاً للمثوبة في الآخرة بالطاعة
والإحسان .

والمفكر والمؤمن معاً في الدين الجديد مكان أولهما ينتهي
أن ينتهي إلى ما ينتهي إليه الآخر ، لأن الحق واحد في جميع
السرائر والضمائر متى أحسنت التماس والاهتداء .

وهكذا لا بد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصالح للسكافة ،
العامة منهم والخاصة ، يشمر كل منهم أن له عقيدة يطامن إليها ،

وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا ، وبالأخرة . بالله وبالإنسان ،
فالناس أمة واحدة في هذا الدين الجديد . . .

هذا الدين المرموق هو دين البشر . . .

وكان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين . .

وسنرى كيف نهض الإسلام بهذه الرسالة التى لبّت حاجة
البشر الطبيعية فى ذلك الطور المعين من أطوار الاعتقاد . . .

الله

لا يدع القرآن شائبة من ريب في مسألة وحدانية الله ، فجاء
في (سورة الإخلاص) :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ »

ولا في تنزيهه عن الشرك والتعدد :

« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »

وفي ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل
الكتاب أيضاً ... فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته .
وأنه ابن الله . وأن الإله الواحد ، جوهر واحد ، له ثلاثة أقانيم
هي الله الأب ، والله الابن — وهو المسيح — والروح القدس .
وشبهوا ذلك السر الإيماني بالمسيحي بالشمس ، وكيف أنها حقيقة
واحدة ، تقع على الحواس قرصاً ، ونوراً ، وحرارة ..

ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات

حوارييه (الأنجيل) إشارة إلى متى ، من ذلك . بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ « ابن الإنسان » .

وأما البشارة لله عز وجل ، فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق ، وعمنى يشمل البشر كافة ، حين أوصى أن تكون صلاة الناس إلى الله بادرة بقولهم « يا أبانا الذى فى السماء » . . . وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البر ، كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله . فالمسيح رفع خصوصية البر عن اليهود الذين قالوا : « إن أبناء إبراهيم وحدهم هم الناجون الظافرون برضوان الله » لأن الناس كافة أبناء الله ما سلكوا طريق البر ، وأحبوا الله ، وأحبوا إخوانهم فى الله ، حتى أعداءهم .

بل إن المسيح وعظ الناس فضرب لهم المثل فى رعاية الله وعنايته ، بما يتيحه من الرزق لطيور السماء ووحش الفلاة . وما يتيحه من الزينة لزنابق الحقل ، فلا ينبغى أن يكون حرصهم كله على مال الدنيا وقوتها وجأها وزخرفها . . . وما أقرب هذا أن يجعل رعاية الأبوة مطلقة شاملة لجميع السكائنات ، وما أبعد هذا أن يكون ذلك « السر » أو « اللغز » المعقد الذى اختلفت فيه أقوال المفسرين من أساطين السكهان وعلماء اللاهوت .

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة بل فتن بين صفوف أتباع

المسيح والمتسبين إليه . وجمعت المجامع ، ووفعت المذايح وصار
الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة ، لا إلى الألفة واجتماع العقول
والقلوب على عقيدة يطمئن الجميع إليها .

وناهيك بعقيدة لبابها المحبة حتى للأعداء . تكون مثار
ذلك كله .

وناهيك بعقول السواد ممن غبرت لهم في الوثنية جذور عقلية
وحسية منذ ألوف السنين ، كيف لا تنزلق إلى الشرك من باب
هذا « السر » الذي يحمل من الواحد الفرد ثلاثة أقانيم !

لا بد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ، ولا بد من نفي اللبس
وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة ، وهو التوحيد مطلق
التوحيد .

إذن تعين أن يأتي الدين الجديد بحسم هذا الاختلاف الوييل:
« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . . .

لم يلد ولم يولد . فأقرب إلى العقل أن من يلد أخرى بأن
يولد . . وما كان سبحانه فرداً في جنس ولا واحداً في سلالة من
نوعه . حاشا ! بل جلّ عن النظراء والأكفاء . فمن ذا الكفاء لله؟
وكان لا بد للدين أن يثبت قلوب الناس بالطمأنينة إلى عناية

الله بالخلق ، وإلى قدرته ، وإلى سلطانه المطلق على الكون كله .
فقرر القرآن في عزم وحسم أن الله « خالق كل شيء » . « وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .

هو الخالق ، وهو المدبر القادر . لم يخلق الكون ثم نقض
منه يده « أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ » . . .

ولا يدع القرآن في ذلك شكاً ، فهو يقرر ويكرر في أكثر
من موضع تلك الحقيقة الجوهرية ، التي تقر سلطان الله على الخلق ،
وتدعوهم للطمأنينة إلى عنايته ، والحرص على رضوانه . فجاء
في سورة الحديد :

«هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ . وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

وجاء في سورة الأعراف :

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » وجاء أيضاً « أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وجاء في سورة يونس :

« وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ »

وجاء في سورة يس :

« وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وجاء في سورة فاطر أنه سبحانه :

« عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

وجاء في سورة المؤمنون :

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ »

وجاء في سورة غافر :

« يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »

وهكذا بدت العقيدة الإلهية في الإسلام ناصعة الصفاء في
تجردها من الشرك وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه على نحو حاسم
كانت البشرية قد بانت في حاجة ماسة إليه بعد الذي انتاب
المؤمنين بالأديان من اختلاف وبابلية .

وأما المسألة مسألة إيمان ، فمن آمن بمقيدة تنزه الله عن كل
مشابهة بالخلق ، وعن كل تعدد تجسم أو استدق ، يكون أقرب إلى
طمأنينة العقل والنفس ممن يروضها على الإيمان بإله واحد ولكنه
يحتمل على تصور وحدانيته رغم أقانيمه المتعددة . ويحار في وجه
حاجته سبحانه إلى تعدد الأقانيم ، وقد كانت لمبادءه غنية عن تلك

الحبرة بتمام التوحيد ، فيغلق الباب دون كل تساؤل وكل إيهام ...
أما صفاته سبحانه فلا يدركها الحصر ، وإنما يتجلى للناس
منها ما يعينهم وما يكون على قدر إدراكهم .

وأول ما يجبه الناس أمر الحيا والمات ، فإله هو :

الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . (سورة الفرقان)

وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ . (سورة المؤمنون)

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . (سورة القصص)

وتتواكب آلاء الله على عباده . فهو الرازق الوهاب خالق

مافي الأرحام . العليم الحكيم البصير المنتقم ذو الجلال ...

وقد كانت لبني إسرائيل تصورات مفزعة عن آلاء الله ،

تكاد تنفي الطمأنينة وتبعث الهول . وما دين بغير طمأنينة يستقيم

بها أمر الناس في حقهم من الدنيا والآخرة ؟

إن كل سورة يفتتحها القرآن باسم الله « الرحمن الرحيم » ..

لا يكتفي من هاتين الصفتين بواحدة دون الأخرى .. ويقول

في (سورة فصلت) :

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

ولا يجرى ذكر العذاب إلا ويطمئن الناس إلى العدل وإلى

الإعذار مع الإنذار ، فهو إذ يقول في سورة البروج :

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

يردّها بقوله :

« وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ » .

وجاء في سورة الإسراء :

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحقاد لآثام
أجدادهم الغابرين، وأن حصرم الآباء يضرس به البنون ... فالقرآن
قاطع في نفي هذا الجور المستعصى على الفهم فيقول في (سورة فاطر)
« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

ويقول في البقرة :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ -
وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهو توضيح أو تصحيح كان لا يحصى عنه ، وإلا وجد العقل
البشرى في سنن الله ثلمات تزججه وتصدّه عن الإيمان والتسليم .
وكأعما بقيت بعد تلك الصفات وقفه قد يقفها عقل البشر الذين

درجوا ألوف السنين على التجسيم وهو تصوير كل شيء في صورة الجسم الذي له موضع محدد وأين معين .

ويأتى القرآن بالجواب ، حاسماً قاطعاً لكل شك :
« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ . فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » (البقرة) .
« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ . وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ » . (الأنعام) .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ : فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ » (البقرة) .

« وَآمَدْنَا خَلْقَنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (سورة ق) .

ويحار البشر . فيقضى على تلك الحيرة بذلك القول الفصل :
« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (الشورى) .

عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل
حيرة وخوف ، ويبيث الطمأنينة في كل نفس .

وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان ، لا يصد عنها أحد
بسبب جنسه أو لونه :

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ». (الأعراف)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاهُمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (الحجرات) .

وهكذا يجد كل إنسان له مكاناً في ظل هذه العقيدة الإلهية
على أساس من المساواة المادلة ، التي لا تفاضل معها إلا بالتقوى ،
تقوى الله رب « العالمين » ...

الإنسان

أما الإنسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيراً ، بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم ، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثية ، لا بد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجزيرتها أبناء الجنس البشرى كافة .

وإن أنس لا أنس ما ركبنى صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى ، وما سيقّت فيه من سياق مروع ، يقترن بوصف جهنم ذلك الوصف المثير لخيالة الأطفال . وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران ، جزاء وفاقا على خطيئة آدم ، بإيماز من حواء . . وأنه لولا النجاة على يد المسيح ، الذى فدى البشر بدمه الطهور ، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين .

وإن أنس لا أنس القلق الذى ساورنى وشغل خاطرى عن ملايين البشر قبل المسيح ، أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة ! ؟ .

فسكان لا بد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ،
وتعلمتهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالمجرم ، أو تزر الولد
بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة .

ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ، وما
يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول في سورة طه .
«وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَاتَبَ عَلَيْهِ
وَهَدَى» .

ويقول في سورة البقرة :

« فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

وآدم ، أبو البشرية ، كرمه الله نخلته على صورته ، وفضله
على الملائكة ، وقد جاء في سورة البقرة .

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا » .

ذلك أن الإنسان قادر على الخير والشر .

وليس كالملائكة التي لا قدرة لها إلا على الخير ، فله عليها
فضل الإرادة لما يأتيه من الصالحات .

أما بنو آدم ، فتقول سورة الإسراء .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .

ويخاطب الناس في سورة الحج بأن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ »

وفي سورة لقمان أن :

« سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ » .

إن المسؤولية هي أساس الكرامة الإنسانية ، وأساس كل
حرية ، وكل أخلاق ممكنة . وهذا ما قطع به الإسلام ، ووضع
به الحجر الأساسي لكرامة بني آدم . فيقول في سورة النجم :

« وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ
سَوْفَ يُرَى » .

ويقول في أكثر من سورة ، على سبيل التأكيد « وَلَا تَزِرُ
وِازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وهو القائل في سورة التين .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

هذه المسؤولية هي التي يسميها القرآن الأمانة : تلك الأمانة
التي جاء في سورة الأحزاب :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَيُّنَ أَنْ بَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَّاءِ الْإِنْسَانِ .
ثم نجد في سورة الإسراء :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . .

والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القائمة ،
التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء ، فيمضي في حياته مُضَيَّ الرّيب المتردد ، ولا يقبل عليها إقبال الوثائق ،
بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث .

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها . ورفعها
عن كاهل الإنسان منة عظمى ، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة
فيه . بل هو ولادة جديدة حقا ، وَرَدُّ اعتبار لا شك فيه . إنه
تمزيق صحيفة السوابق ، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه .

والناس في كرامة البشرية أمة واحدة ، بغير تفريق ، فقد
جاء في سورة الأنبياء :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »

وجاء في سورة الحجرات :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ أَتَقَاكُمْ .

أجل ! لا عصبية ولا شعوبية ولا فروق من حيث اللون
أو اللغة . وهذه سورة الروم تقول :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ ... وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
اللِّسَنَاتِ وَالْوَاوَاكِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ » .

ومكذا صار الناس سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عند
الله أتقاهم . ثم « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (سورة المجادلة) و « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (سورة الزمر) .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

وأن من كرامة الإنسان على نفسه أن يتبع الحق ، ويجهز
به ويحتمل في سبيل ذلك من العذاب ما يصيبه بنفس راضية .
وعلى المؤمنين أن يتواصوا بالصبر كلما تواصوا بالحق . أو كما جاء
في سورة العصر .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

وإن الغلبة للحق في نهاية الطاف على كل حال .

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » (سورة الأنبياء) .. « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » (سورة الإسراء) .

أجل ! وينبغي أن يقر الإنسان الكريم بالحق ولو على نفسه وآله الأقربين ، كما ورد في سورة النساء .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » .

إن الحق مقدس ، ولو كان فيه نصرة عدو أو مغنم له ،
فذلك هو لباب التقوى . فقد جاء في سورة المائدة .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .. » .

ثم جاء في ختامها « هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وتشيد سورة الفرقان بالصادقين : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ
الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

وإن الإنسان الكريم العزيز بإيمانه لصبور على المكاره إن
أودى في سبيل الحق :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ » (سورة البقرة) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (سورة آل عمران) .

« وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ » (سورة إبراهيم) .

هي الشجاعة في الحق ، والشهادة لله ، والصبر على الإيذاء
في سبيل الحق ، إنها لصفات الإنسان الكريم على نفسه حقا .

ولكنها لا تتم روعة إلا بالخشوع للرحمن .

« لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ،
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . وَاسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ، الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » (سورة البقرة) .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ . وَاعْصِمْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (سورة لقمان) .
« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ » (سورة غافر)
« إِيَّاهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة النمل) .

وأشهدكم نعيمت نفسي وغثيت كلما رأيت عقلا من المتكبرين
الذين غرهم من الدنيا ظل من السلطان . ومادروا لغفلتهم أن
السلطة في ذاتها ليست شيمًا ، وأن الولاية على الناس جذوة من
النار ، أما الشيء حقًا ، فهو رعاية الله في حقوق الناس ،
واستخدام السلطان للخير والعدل في غيرة على الحق ، وحماة
لنصرته ، وابتغاء لوجه الله لا يعرفه إلا الخاشعون . وأكاد أقذف
في وجه القدم من هؤلاء بما جاء في سورة الإسراء :

« . . . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ
الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ
رَبِّكَ مَكْرُوهًا » . .

ولاتم صورة الإنسان الكريم العيور على الحق ، الصادق
في القول ، الصابر في الهول . الخاشع للرحمن ، إلا بأن يكون صادق
الوعد ، موفياً بالعهد والعقد :

* «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» (سورة الإسراء).
 * «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» (سورة المائدة).
 «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» . (سورة النحل)

وما من خلة أزرى بالإنسان الكريم من النفاق . وقد أنحى عليه القرآن إنحاءً عنيفاً :

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى . يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبَذَبَيْنَ بَيْنَ بَيْنِ ذَلِكَ ، لَا إِلَى هُوَ وَلَا إِلَى هُوَ لَا» . «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» (سورة النساء).
 «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (سورة آل عمران).

فالإنسان الكريم حقا لا ينافق ، ولا يخشى في الحق شيئا ، ينصر الله ، والله ناصره . ذلك جوهر إيمانه . وإنه بذلك لعزير المكان في الدنيا والآخرة ، لا يسعى في دنياه سعى الغريب الدليل :
 «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» . (سورة القصص)

وهكذا يكون الإنسان متكامل الجوانب لا يشكو « فصام » .
الروح والجسد ، ذلك الفصام ، الذى عانى منه الكثيرون .
ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده . . .

وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقا ، لا ينظر إلى طبيعتها
نظرة الحسير ، ولا يعيش فى جنباتها مشية الأسير ، ولا يثقل كاهله
الحزى من نوازمه ، فى يده زمام نفسه . وقد أحل له ما لم يرد
فيه تحريم ، تقرّبه عينه فى غير حرج ولا غضاضة .

النسبة

لاتأليه ولاشبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية . وهي مسألة كانت تحتاج إلى توضيح وحسم ، وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد ، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب ، أو بنسب من الأنساب . فإقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يمتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشراً كسائر البشر ، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء .

ولذا نجد تأكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً في آيات القرآن ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، ما جاء في سورة الكهف :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. » .

وفي تخير كلمة « مثلكم » معنى مقصود به التسوية المطلقة ، والحيولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال .

بل نجد ما هو أوضح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا ، فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ! » .

وظاهر في هذه الآية تمعد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته ، وحدود رسالته التي كلف بها ، وليس له أن يعدّوها ، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها .

بل كأنما احتاج هذا التنبيه إلى مزيد من الصراحة ، فجاء في (سورة ق) :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

ومن هذا القبيل أو أيّن منه وأصرح ما ورد في (سورة الفاشية) :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » .

رسول بشر . ما عليه إلا البلاغ بما يوحي إليه من ربه .
ولا زيادة ..

وتوكيد القيمة البشرية بمحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب ، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها ، وتاريخ الرسول كله .

إن رسول الإسلام هو أول رسول بعث إلى الناس وانبرى

تدعوهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للابصار الخالبة للألباب . فقد أريد للناس أن يشعروا أن رسولهم « مثلهم » حقاً وصدقاً كما جاء في سورة الكهف . لا يملك من الخوارق أكثر مما يملكون . وليس له من سلطان عليهم . وإنما الأمس إليهم ، كي يكون اهتداؤهم نابعاً من قدراتهم البشرية ، وعن افتناعهم الذاتي ، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير . . . فيكون اهتداؤهم إيماناً ليست فيه شائبة استهواء أو توريط .

وما توانى العرب عن مطالبته بإخراج ما ظنوه في جمية كل صاحب نبوة ، وما أرادوا بذلك إلا الملهاة :

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ : إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ، (سورة يونس .)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » (الأنعام) .
 « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ .
 إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (سورة الأعراف) .
 ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء .
 حقاً ! وما أكثر ما أودى ، وما أشد ما أساءوا إليه به ،
 وهو لا يملك لذلك دفعاً ، إلا الصبر على البلاء :

حقاً ! بل وتخطف الموت فلذات أكبادهم . . ليسكون ذلك
إيداناً بأن البشر الرسول ليس له امتياز على سائر بني آدم . فتسقط
دعوى الناس في التقصير عن الاهتداء به . فلو كان يجري عليه
غير الذي يجري على البشر ، لسكانت لبعضهم الحاجة بأن
استطاعتهم دون استطاعة هذا الرسول ، فأين هم منه ؟ وكيف
يكفون بما لا طاقة لهم به ؟ .

بل هو « مثلكم » لا يملك لنفسه نفماً ولا ضراً . ويمسه
السوء والشكل مرة بعد مرة . . ففيه قدوة سوية وأسوة عادلة
لكل من نشد الاهتداء والافتداء .

وفي يقيني أن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة
لا تستساغ إلا في حالات انحطاط العقل البشرى ، فهذا أشبه
بالاحتياج على الطفل ليقبل على الطعام الذي يقيم أوده . وهو
حرى أن يطلبه ويلج في طلبه لو أوتي الرشد .

كذلك العقل السوى يجد امتهاناً له أن يحتال عليه صاحب
دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ، فإن كل دعوى
صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها . فالحقيقة آية نفسها
ولا مرأى في ذلك .

لهذا كان لا بد للعقل البشرى في طور رشده أن تأتبه الدعوة

إلى الهداية بأسلوب عقلي صرف ، يحترم فطرته وبداهته ،
وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة
للطور الطبيعي للبشرية تاريخياً ، ونصوحاً ، ورشداً .

وكان القرآن يؤكد على الدوام أن الرسول ليس ساحراً ولا
كاهناً ولا مجنوناً ممن بهم لوثات الصرع . . وينبه إلى المعجزة
الخارقة لا تفيد في إقناع مكابر ، وفي ذلك ما جاء بسورة الحجر :
« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .
كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ
خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا
فِيهِ يَمْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَسْحُورُونَ » .

ومن أنعم النظر في هذه الآيات من سورة الإسراء يجد فيها
حكمة الإصرار على بشرية الرسول ، وأن آيته الوحيدة هي صدق
رسالته . وذلك حسبها من سند ، وحسب الناس لو كانوا مهتدين
غير مكابرين . فما شاء الرحمن أن يكون الرسول ملكاً من
الملائكة ، حتى تكون بشرية هذا الرسول حجة على الناس وقدوة :
« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ

الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا
كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ
مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي أَعْلَمُ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا
رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ
قَالُوا : أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ
مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَسُولًا . قُلْ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .

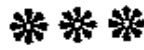
ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا ما قاله الإمام محمد
عبده في مفتتح كتابه « الإسلام والنصرانية » :

« فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل
العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري . فلا
يدهشك بخارق المادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة .
ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك
بصيحة إلهية .

« وقد اتفق المسلمون إلا قليلا ممن لا يعتمد برأيهم فيه ، على

أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من السكتب المنزلة . فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولا .

رحم الله الأستاذ الإمام !



إن الحقيقة باقية والبشر زائلون .
الرسالة إذن هي الباقية ، وما هي بموقوفة في شيء على بقاء
هذا الرسول :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ . . »

إنها الحقيقة . ولكن كان لا بد من تقريرها لتوكيد بشرية
هذا الرسول . . . وليس أدل على لزوم هذا الاحتياط من افتتان
الناس برسولهم وجنوحهم إلى الخروج به عن مستوى البشر الفانين ،
من أن إماما مثل عمر بن الخطاب ، على رجاحة عقله ،
وقوة إيمانه ، وهو من هو من الإسلام ورسوله ، أبى أن

يصدق أن الرسول نزل به طائف الموت . .

ولولا أن أبا قحافة تلا عليه وعلى الناس هذه الآية
لقطع عمر أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات .
« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ » .
كان من الجائز أيضاً أن يقتل بيد عدو من أعداء دعوته
وما أكثرهم ، وما كان ذلك لينفي شيئاً أو يثبتته . فإن الحق حق
لذاته ودعوة الإسلام صادقة لذاتها ، عاش الرسول أو مات
أو قتل .

هذا إذن هو مكان النبوة في ذلك الطور الأخير . من أطوار
العقيدة الإلهية . . يتنزه الله في تلك العقيدة عن أساليب جوبيتر
وأشباه جوبيتر . وليس أنبيأؤه كهاناً ولا ملائكة ولا سحرة
ولا منجمين . . وإنما هم بشر يأتيهم الوحي من الروح الأمين . .
وليس عليهم إلا البلاغ المبين .

ولسكن هل تكرر تلك النبوة على ذلك الأسلوب ؟

لا حاجة للبشرية بذلك التكرير . فإن طور الأسلوب العقلي
المجرد هو آخر أطوار البشرية . ومن تفتح عقله ، وبلغ رشده ،
فطأه في عنقه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل فكره ، وقد تسلم
قياد نفسه .

للمرسالة خصوصية هي إتمام ما سبق . ومتابعة البشر في
أطوار نضجهم بما يناسبهم من الهداية والصلاح . فما هي
الخصوصية التي يمكن أن تكون موضوع رسالة جديدة بعد
رسالة الإسلام ؟ .

لقد تمت فكرة التوحيد . وتم خطاب العقل . وتم البلاغ
إلى الناس كافة ، أحرهم وأسودهم ، وتمت كرامة الإنسان وصلته
بربه ، وبدنياء . وتركت لهم مصالحهم المرسلات يعالجونها على ذلك
الأساس حسبما يستجد لهم من الأمور . فكل رسالة بعد ذلك
قول معاد ، ليس فيه جديد يستفاد :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي . . » .

وبسبب من طبيعة الرسالة ، ومن الحاجة الطبيعية للناس
إليها ، كان من الطبيعي أن يكون هذا الرسول خاتم الرسل ،
لأن رسالته كانت خاتمة الرسالات .

حواوي

المرأة في الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية . فهي في ذلك صِنُو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه . . أمانة العقيدة والإيمان وتركيز النفس ، نجاء في سورة الأحزاب :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ : أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور . ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم ، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانا كثيرة كما تباع السلعة . يبيها أبوها أو رأس عشيرتها أو زوجها . وكانت في كثير من الأحوال منقوصة الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقة .

بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص . وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه .

وأكثر من هذا ، كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأتهن ، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقاً شديداً .

«وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ : أُتِمَّ سُكُّهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » (سورة النحل) .

وفي هذه السورة عينها إشارة إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفریق في التكليف أو الجزاء :

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وفي سورة النساء إشارة صريحة إلى مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود :

«لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ » .

وفي بعض الأمم القديمة ، وفي بعض الأمم الحديثة ، كانت المرأة تحرم غالباً من الميراث ، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش ، ونص على ذلك في سورة النساء :

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا » .

وهذا النصيب المفروض : « للذكر مثل حظ الأنثيين »
باعتبار أن نفقات المرأة تقع على عائلها من الذكور بالغاً ما بلغ
رأؤها . أما الذكر فهو عائل أهل بيته من أولاد ونساء . فأعباؤه
المالية أبهظ من المرأة بكثير . وهذه القسمة إذن أقرب إلى بحالة
المرأة في شئون الأموال الموروثة .

ولا يخوض إنسان في موضوع المرأة في الإسلام من غير أن
تخطر بباله قضية تحرير المرأة في هذا العصر ، ومساواتها بالرجال
ويخطر على البال حتماً قول القرآن في سورة النساء :

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

وما جاء في سورة البقرة :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ
دَرَجَةٌ » .

فإنها تبدو لأول وهلة هابطة بالمرأة إلى « درجة » دون
درجة الرجل . وفي هذا ما فيه من بواعث النساء ، في زمن

استفجحت فيه قضية المساواة بين الجنسين وتقررت في جميع الأمم
الآخذة من الحضارة بنصيب .

وعنا لا بد من الرجوع إلى مسوغ هذا التفاوت أو التفضيل .
وليس كل تفضيل جوراً . بل إنه متى كان التفضيل لفضل ثابت ،
فهو المبدل الصراح .

وليس المفروض أن يكون هذا الفضل مطلقاً بغير قيد أو شرط
لجنس معين من الجنسين ، بل إن التفضيل — عقلاً — لا يصح
إلا بحصول الفضل وتحقيقه . يرتفع بارتفاعه ، ويوضع بوضعه ،
ويتحول بتحوله .

فما الفضل المشاهد للرجل على المرأة ؟ . .

إنه حاميا . وإنه عائلا . وإنه تركز إليه وتلوذ به . وإنه
أعلم منها وأبصر بأمور الدين وأمور الدنيا . وإنه أحظى منها
بنصيب من المواهب أو القدرات .

ولم يرد ذكر القوامة على النساء على إطلاقها للذكورة بغير
بيئة بل قيل :

« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

فهناك إذن وجهان لحصول تلك القوامة : هو إرباء الفضل والإعالة ، أو النفقة المالية .

وشق الإعالة أو النفقة قد تجد له المرأة حلا في نزولها إلى ميدان الأعمال ، وقيامها على أمر معيشتها كالرجل أو أكثر منه وأحجى .

وأما إرباء الفضل ، فهو رهن بإصابة نصيب من التعمم ، أو البراعة في فن من الفنون ، أو راحة العقل ونباهة الذكر : وهي مقررات الفضل بنص القرآن . فقد جاء في سورة المجادلة .

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

ولا ينبغي عن البال ورود « درجات » بصيغة الجمع ، وقد وردت في سورة البقرة عند التعرض للمرأة والرجل بصيغة المفرد : « وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

وجاء في سورة الزمر :

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وجاء في سورة النساء :

« لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » .

إن العلم يرفع صاحبه على من لا علم له ، فالعالم خير من الجاهل .
والجاهلة . والمالة خير من الجاهلة والجاهل .

والمؤمن خير من الكافر والكافرة . والمؤمنة خير من
الكافرة والكافر .

والمجاهد في سبيل الله بأمواله ونفسه خير من القاعد عن
الجهاد والقاعدة . والمجاهدة في سبيل الله بأموالها ونفسها خير من
القاعدة عن الجهاد والقاعد .

لا تفضيل بغير فضل ، ولا تشريف بغير تكليف ، وإنما كان
العرف جاريا بانحباس المرأة عن هذه المجالات ، ومتى زال هذا
العائق ، وارتفع عنها القصور أو التضييق ، فهي حقيقة بشرات
فضلها وقيامها بتلك التكاليف الجسام .

ولا أعتقد أن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس يكون
بالحرب والفتح فحسب ، بل وبكل عمل صالح لخير عباد الله بنشر
العلم أو رفع المرض أو هداية الناس إلى ما تصح به نفوسهم
ويسرون به للخير ورضا ربهم في أمور دينهم ودنياهم .

فليس الإسلام — على حقيقته — عقيدة رجعية تفرق بين
الجنسين في القيمة . بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على
قدم المساواة . لا يفضلها إلا بفضل ، ولا يحبس عنها التفضيل

إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مهمل أو مرأه .
وما من امرأة سوية تستغنى عن كنف الرجل بحكم فطرتها
الجسدية والنفسية على كل حال .

وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على
تعاقب الأطوار والمصور ، على سنة العدل التي لم يجد لها معصراً
اسماً أوفق من « تكافؤ الفرص » ، الذي يلغى كل تفريق ،
ويستقط كل حجة ، ويقضى على كل تمييز إلا بامتياز ثابت للجميع .

الزواج

الزوجة الواحدة أو الزوجات الكثيرات .

هذا هو لباب ما يشور حول موضوع الزواج في دين الإسلام .
فلا بد من وقفة هاهنا لنتبين الحقيقة في هذا .

من المسلم به أن الدين لا يقصد به مستوى من البشر دون مستوى ، ولا عصر من العصور دون سائرهما ، ولا بيئة من البيئات بعينها . وإنما يراد به التشريع للسكافة وتنظيم حياة البشر من حيث هم كذلك ، مع مراعاة فطرتهم السوية . . . ولكن مع الإشارة إلى ما فوق ذلك من درجات السمو التي لا يبلغ إليها إلا الخاصة وأولو العزم من الناس .

وعلاقة المساكنة بين الذكر والأنثى هي أساس الأسرة .
وهي تنبعث من غريزة طبيعية ينظمها التشريع أو العرف الاجتماعي ما وسمه التنظيم ، عسى أن يضع حدوداً لتلك القوة الحيوية العارمة ترتفع بالإنسان فوق مستوى البهيم .
وما من شك في أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة نظام مثالي

عن من البديهي أيضاً ألا يطيقه إلا المثاليون . وخاصة ذوى العزم .
وما لهؤلاء فحسب جملة هداية الدين .

ونظرة إلى واقع الحياة البشرية في تاريخ مجتمعاتها الغابرة
والحاضرة ، تطلعنا على تعدد النساء في حياة الرجل الواحد ،
سواء جهراً أو سراً ، وسواء برخصة من القانون أو الدين ، أو
خلف القانون والمقيدة .

وما من عاقل يفضل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصة ،
فإن أثر الشعور بالإثم والاختلاس على السلوك البشرى بعامة
الأثر خبيث يسم حلاوته ويمكر صفاءه الذي لا تقوم السعادة
الروحية والنفسية بغيره . . فضلاً عما في العلاقات المختلطة من
إضرار بالمرأة وإفساد لحياتها لا حيلة فيه .

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضر . ففي الريف
والبادية يمز القوت أحياناً ولا سيما على المرأة . وقد يكون في عدد
النساء زيادة عن عدد الرجال . فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر
معيشتها مادياً ونفسياً إلا إذا صارت في كنف رجل . وعندئذ
الاحيلة في التعدد ، لأنه الحل السليم الوحيد ، أو هو أسلم أساس
الطبعات هذه حقيقة ظروفها . والضرورات تبيح المحظورات .

هي رخصة إذن تستخدم بحسبها ، وعند حصول مسوغاتها
الطبيعية من أحوال البيئة ، أو من أحوال الأفراد .

وما القول في زوجة أقعدها المرض ؟ وما القول في الزوجة
العقيم ؟ وما القول في الزوجة الفاترة ؟ وما القول في الزوجة
السقيمة الأعصاب ؟ أطلاقها أرحم بها ، أم إردافها بزوجة أخرى ؟
لاشك أن الأمر واضح .

هي رخصة إذن تستخدم بحقها . ولكنها ليست إلزاماً .
فهذه سورة النساء تقول بصريح النص :
« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .
بل وتقول أكثر من هذا :

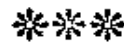
« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .
وفي هذا إيحاء ، بل حض على الزوج بواحدة .

وليس من الإنصاف في شيء أن نقيس هذا الحض بمقياس
زماننا وآدابنا . بل بمقياس زمان الدعوة وآدابه . ففي تلك البيئة
الصحراوية الجاهلية كان التعدد مطلقاً من كل قيد . ومن هذا
نقهم سر قول القرآن : « مثنى وثلاث ورباع » ، بلهجة من بعدد
للطامع ما هو مباح ، بأسلوب يوحى بالتوسع ، وهو يرمي إلى
التضييق كل التضيق . . وما أشبه هذا - في تصويري - بالأب
الذي يقول لطفله الشره إلى الحلوى شرها لا يقف عند حد ، أو
لا يؤذن بقناعة دون العشرة والمشرين :

— سنعطيك واحدة في الصباح، أو فل اثنتين . وثالثة في
الظهر ورابعة في العصر . أرايت أنى لم أبخل عليك ؟
أما ما زاد عن ذلك فإيس إليه سبيل !

ثم تلا ذلك الإيحاء بالواحدة لمن خاف الظلم عند التمدد ،
وليس عن الظلم عند التمدد محيى .

أما في غير تلك البيئة وشبهاتها من بيئات البشر الذين
تتوجه إليهم الدعوة ، فالمسألة أوضح ، ولن تضيرهم رخصة التمدد
وهم على التوحد أو أقرب إليه طبعاً ونشأة ، ولهذا قال الله تعالى :
« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » ففي ميدان
الفضل والتعفف سعة . وبه يتفاضل الناس بعضهم فوق
بعض درجات .



ولا يتم النظر في موضوع الزواج . ما تمدد منه وما توحد ،
من غير النظر في كيفية الزواج ، أو نوع الصلة الزوجية .
إنها ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى ، على إطلاق
بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسى النوع البشرى .
لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد .
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

هكذا جاء في سورة الروم . . وإني لأرى في قوله « من
أنفسكم » لسة تمس شغاف القلب . وتذكر بما في الزواج من
قربي يجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن ، وما
أقرب السكن في هذا الباب من سكينه النفس لا من مساكنه
الأجساد ! . بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة .

مشاطرة نفس ، وسكنها وسكينتها ، ومودة ورحمة . ما من
شيء في هذه كلها من خصائص المتعة الشهوية والرغبة الجنسية
البحث . فإن الشهوة تأخذ وتنال ، وهي معتصمة بأنانياتها
وانمزالها عن الطرف الآخر ، ولا تزيد بعد مأربها إلا شهوراً
بالعزلة والوحدة الموحشة . وشتان هذه والشاطرة ، وسكن
النفس ، والمودة والرحمة .

كل أولئك من صفات الحنان . الحنان الذي يرحم ويؤثر ،
ومن صفات المحبة التي تعطى قبل أن تأخذ ، وتنبيل قبل أن تنال ،
وتقيم مطمئنة لتزداد بالمساكنة غنى وأمناً وأنساً . وتلك عليا
مناعم المعاشرة الإنسانية ، بما فيها من غلبة الروح على نزوات
الأجساد ودفعات الرغبة العمياء .

الزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان ، وليس مطلباً
شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدي .

ثما كان أخرى الناس — لو أن مطلب الجسد رائدهم
مربتهام — ألا يعرفوا حدود الزواج وقيوده ، التي تفرض
الالتزامات على كل حال ، ثقلت تلك الالتزامات أو خفت ، وتربط
بين الزوج وزوجه برباط هو قيد على كل حال ، وفي خارج الزواج
لا قيد لمن كل همه متاع البدن وقضاء اللبانات الشهوية .

ورب قائل يقول : أما والزواج مطلب نفسى وروحى عند
الإنسان وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدى . .
فقيم التعدد إذن ؟ وإن كان رخصة يهبها لمن شاء ويتنكبها متممناً
من شاء ؟ . . أما كان التوحيد هو سبيل ذلك السكن النفسى بمعنى
الكلمة ؟ .

والجواب أن هذا صحيح من حيث المبدأ ولا مراء . ولكن
المبادئ قلما تعيش في دنيا البشر فتتيسر في أمور هي أمور ما تكون
بالحياة اليومية والحقائق المادية .
وأزيد الأمر وضوحاً :

أين هي الزوجة المثلى التي تملأ جوانب الرجل النفسية وتسكن
إليها نفسه سكناً كاملاً حتى لا يفتقد في كنفها لونها من السكينة
والطمأنينة كان يريه أو يشقاق إليه ؟ .
قليل . أقل من القليل .

يقول سليمان الحكيم ، الذى عرف ألوف النساء من جميع الأصناف والألوان ، وقد اجتمع فى وطابه من التجارب الزوجية ، والنسوية ما لم يجتمع للإنسان :

« الزوجة الفضلى أئمن من اللؤلؤ النفيس . من ذا يجدها ؟ ! »
إن من وجد هذه اللؤلؤة بين النساء لن تهفو نفسه إلى سواها ، بل يتعلق بها تعلق الطفل بصدر أمه لا يرضى به بديلاً ولا يروم عنه حوْلاً .

وأما من لم يجدها ، فى نفسه أشواق تظل ظمأى ، تتأفت صادية تنشد ربيها هنا وهناك .

هنا وهناك هذا واقع نلمسه كل يوم ، وكل ساعة فى رجال محصنين بالزواج ، تصبو نفوسهم إلى غير زوجاتهم ، فى علاقات مختلفة ، تسف بهم وبشريكاتهم إلى درك الحيوان ، أو درك الحزى والتأثم المهدر لشعور الكرامة التى هو خاصة الإنسان .

فراغ ينشد الامتلاء . فالطبيعة تفزع من الفراغ وتأباه كما يقول الحكيم القديم : ومن هنا يكون فى رخصة التعدد ملاذ يكفى الناس شرّين : أولهما شر التورط فى الآثام التى قد تشوه النفس مهما أُرضت نوازع الأشواق الجسدية . وثانى الشرين تطليق

الزوجة القديمة لتفسح للزوجة الجديدة مكاناً في نظام التوحيد .
وقد تكون للزواج الأول ثمرات تذوق التشرد . وقد تكون
الزوجة الأولى مثقلة بالسنين أو العلة أو الأبناء أو عاطلة
من الجمال ، خالية اليد من مهنة ، خاوية الوفاض من ماله
فتمتقوض حياتها . ولعلها كانت تؤثر البقاء في كنف زوجها على
كل حال .

رأى أعرف من تجربتي الشخصية حالات كثيرة من هذا
القبيل ، سأذكر منها حالة جارية لنادي دمنهور منذ عشرين سنة كان
متزوجاً من سيدة قضى معها ربع قرن لم تتركها زوجة أخرى ،
وكان لهما ولد واحد تجاوز العشرين من عمره ، ثم مات فجأة . . .
وخيم الحزن على البيت . . . وكان واضحاً أن الزوجة بلغت سن
اليأس منذ زمن . . . وإذا بها تلح على زوجها أن تخطب له زوجة
تنجب لهما ولداً تقر به أعينهما في خريف العمر !

وخطبت الزوجة لزوجها . وأعرس في دارها ، وكانت
الزوجة الأولى من أبر الناس وأرفقهم بالزوجة الجديدة وكأنها
ابنتها . وكان فرحها بالمولود البكر فرحاً جارفاً فكأنما دبت
الخضرة في عودها الجاف ، وعود زوجها الثاقل . . . وأشهد أن
هذا الطفل كان ألصق بصدر زوجة أبيه السهلة من صدر أمه

الشابة . وأشهد أنى أدركت من أحوال هذه الأسرة معنى ما حفلت به كتب بنى إسرائيل من ندب الزوجة الماقر جارية لها كي تحمل من زوجها وتلد لها نسلا !

وفى اعتقادى أن هذا الرأى المستمد من الواقع فى تحديد ظروف التوحد والتمدد هو أقرب ما يكون للتعليل الطبيعى . ولو نظرنا إلى حياة الرسول نفسه لوجدناه لم يشرك فى فراشه أحداً مدة حياة خديجة ، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريباً ، هو طور الفحولة فى حياة الإنسان ، ما بين الخمسة والعشرين والخمسين . ولم تتمدد زواجه إلا بعد وفاتها .

وليس هذا موضع الكلام فى ظروف زواجه بأولئك الزوجات ، بل حسبنا الإشارة إلى أن خديجة كانت الزوجة المثلى فى حياة الرسول ، ظل يشهد بذلك ويفار عليها إلى ختام أيامه ، ويؤكد لعائشة الصغيرة البكر أن الله لم يبدله بخديجة خيراً منها قط ! .

زوجة مثلى ملأت فراغ النفس فسكنت إليها ، ولما ذهبت تركت فراغاً هائلاً لم تستطع واحدة أن تملأه . وأكاد أحس أن الكثيرات يحزن عن ملء هذا الفراغ الكبير على وجه التمام . وأياً كان التمدد بموجبات تلك الرخصة ، فهو مشروط على

كل حال بالودة والرحمة ، فلا تحمل فيه المغايظة والإضرار
الأناني اللثيم ...

وبحسبي أن أشير هنا إلى ما يذهب إليه المعتزلة من تحريم
زواج الرجال بشانية ما دامت الأولى في عصمته لما في ذلك من
المضارة للزوجة وهي سيئة لا يستحسنها العقل .

وهذا في اعتقادي من باب السمو الذي يحض القرآن عليه
إذ أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذي لا مناص منه
في حال التعدد . ولكن الرخصة واضحة ، والحكمة منها قاطعة
بأن التعدد غير محرم لمن عجز عن الحطة المثلى وهي التوحد .

رخصة مبذولة لمن لا مندوحة لهم عنها . والمرتبى فوق ذلك
مفتوح لمن استطاع وهو محمود . وهما نحن نرى ظروف الناس
تتقدم بهم يوما بعد يوم نحو سياسة التوحد في الزواج ، مع
ارتقاء العلم ، وانفساح الفرص للزواج عن بيئة ودرس وتمحيص .



ولا بد في هذا المقام من التعرض لناموس الزواج أصلا ،
بعد أن أشاعت المسيحية حوله جوا خاصا ، خلاصته ، أن العفة
أو الرهبانية هي الأصل ، ومن لم يستطع ذلك فلا يتزوج . فكان
الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك .

ولا شك أن هذا المفهوم مرتبط بفسكرة الخطيئة الأولى ، واعتبار أن العلاقة الجنسية شر في ذاتها ولذاتها . وأن الجسد كله عورة بكل رغائبه وطلبه للعطيات من الدنيا ، فهذا الترهيب ، مع النسك ، والصيام المسيحي المزوف عن أطايب الإدام ، أدلة على الضيق بالبدن ، وازدراؤه ، وصحبته على مضاضة ، والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الدنيا جملة ، نظرة عداوة وحصومة .

البدن شر لا بد منه . وكذلك الزواج . والخير كل الخير في محاربتهم وعدم الانسياق لهما والإخلاص إليهما .

حياة لا طمأنينة فيها ولا قرار . وإنما هو الصراع المستمر . والقلق المستمر ، الذي تفسد به الدنيا . وتميأ به النفس . وقد كشف لنا علم النفس الحديث عن العال والآفات المخربة التي تسهم بتأبيح الحياة بسبب الشعور بالتأثم من الجسم وغرائزه النوعية .

وما حال إنسان يمارس الحياة حزينا مستخزيا من كل نبضة سرور بها وكل حاجة استمتاع فيها وكل انتفاضة طبيعية إليها ! إن الإسلام لا يقاوم الحياة ، بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها ، وصيانة ينابيعها من الأكدار . ولا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما في واقع الجبللة التي جبلها خالقها الحكيم الخبير .

إن القرآن يكرر فضل الخالق وحكمته السامية في إبداع
الجنسين ، وكيف أن هذه سنة الله في خلقه كافة في جميع
مراتب الحياة . والرسول يؤكد أن الزواج نصف الدين .

وأى تعبير أقرب إلى فطرة الحياة ، ويرفع عن تلك الصلة
كل شبهة في خزي أو هبوط مميب ، مما ورد في سورة البقرة ،
بذلك التعبير اللطيف الرقيق اللبق .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » .

أو مما ورد في سورة النساء في باب تعظيم ما يكون بالزواج
من ميثاق وعقد وعهد له حرمة رعى :

« . . . وَفَدَّ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ
مِيثَاقًا غَاضًى . . . »

بل إن الكراهة أمر لا يسوغ البدار إلى فسخ العروة الوثقى .
كما جاء في سورة النساء أيضاً :

« . . . وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . . . » .

إن الأساس في ذلك العقد أنه لا ضرر ولا إضرار « فَإِنْ سَاكَ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » . كما جاء في سورة البقرة . وإن
ذلك لمسبار الخلق الكريم الذي يترفع في سمت الفروسية عن

الافتئات النعيم والجور اللئيم . حتى إن الرسول قال في خطبة
الوداع :

« واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن
شيئاً وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله » :

إن الرجل يمسك المرأة ويقوم على أمرها في كنفه . فهي
تحت رحمته ، ومن ثم وجبت عليه الرحمة بها ولم يجز له الاستبداد
بأمرها . أنها أمانة الله في يده وعنقه . وليس بعد أمانة الله
مخرجة لمن ألقى السمع وهو شهيد ! .



استجابة للحياة في طلاقة وبراعة من التأثم . وتقديس
لدوافعها وورود طلق لينابيعها ، مع الحفاظ عليها من أكدار
البهيمية السفة . بذلك يسمد المرء من بني الإنسان ، وتترقق في
نفسه نضارة الثقة وأفراح الحياة ، ولا يجد حرجاً بين ربه
ونفسه . وربه قد خافه على تلك الفطرة ، ولو شاء لجمه ملكاً
لا بدن له ولا شهوة .

كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين
جنبه بمقيدة موقفة بين الدين والدنيا وقد نهض بهذا الإسلام ،
وكانت سنده في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية

الفطرية ، لتحرير البشر من الذعر والحزى وعقدة . الإثم
الشوواء التي كبَلته . ولم تزل تسكب الكثيرين عن انطلاقة الحياة
وسوء الفطرة .

« فَأَمْسَاكَ بِمَرْوْفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » .

أجل !

لا يمكن أن تتم لنا فكرة متكاملة عن الزواج ، من غير
التمرض لموضوع الطلاق .

والحق أنه يسر جدا تصور زواج بغير طلاق بصورة من
الصور . فالزواج نظام جعل لإسماع الناس وصالح أمور حياتهم .
ولم يجعل الناس ليكونوا عبيداً أو ضحايا للزواج ، فالزواج
الذي تستقيم به حياة الإنسان هو الذي يستحق الإبقاء عليه .
أما الزواج الذي به تفسد حياة الإنسان ويتطرق إليها العطب
والعفن وصدید الحقد والسخط ، فهذا ينبغي أن يبتز قبل أن
يقضى على فرصة الحياة الفذة المقدسة ، كما يبتز العضو الفاسد من
الجسم حرصاً على بقاء الجسم كله مهما كان ذلك العضو المبتور
عزيزاً .

« لا ضرر ولا ضرار »

قاعدة ليس أحكم منها في جميع شئون البشر ومعاملاتهم .
وهذه هي القاعدة الإسلامية العامة .

إن فرصة الإنسان في الحياة واحدة ، فقيم نجعلها عذاباً مقبهاً
ونزوحين تبين أن الوفاق بينهما مستحيل ، وأن حياتهما معاً
إهدار لحياتيهما لا محالة .

إن التطبيق العملي أثبت ذلك ، وصارت أمم الغرب المسيحية
تجيز الطلاق في قانونها بواسطة المحاكم . وذهب بعضها إلى التوسع
في أسباب الطلاق وإجراءاته حتى كأنها مهزلة شكلية .

ثم ما قيمة سعادة يسعد بها الإنسان ، إن كان يدرك ويحس
أنه محكوم عليه بهذه السعادة ولا فسكاك له منها بأي حال من
الأحوال ؟ إنها تكون سعادة جبرية لا اختيار فيها ولا حرية ،
وفي يقيني أن الشعور بالحرية والقدرة على اختيار الموقف والمصير
هما حيزر الأساس في كل إحساس بالكرامة البشرية . وبغير
تلك الكرامة لا قيمة لسعادة مفروضة مهما استطلت .

إن السعادة الحقيقية هي التي يشعر معها الشخص أن الباب
أمامه مفتوح ، وأنه لو قدر له أن يملك زمام الاختيار من جديد ،
ما اختار إلا ما هو فيه .

إن رخصة الطلاق دواء مر المذاق . أو جراحة موجعة .

ولسكن من ذا الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة ، أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب ؟ . .

لا بد من الدواء ومن الجراحة ، ما دمنا نعيش فى عالم كون وفساد ، وصواب وخطأ ، وصحة ومرض ، وحكمة وحماقة . . بحيث لا عصمة للبشر . لا بد من وسيلة لتدارك الأخطاء ، وإعطاء الفرصة لبني آدم وبنات حواء كي يبدؤوا من جديد بناء سعادتهم فى الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح ، يعمرها الأمن والمودة والرحمة .

والإسلام يضع رخصة الطلاق فى موضع الدواء السكرية المذاق أو مبضع الجراح ولا زيادة، ولا يكون اللجوء إليه إلا بعد استنفاد الحيلة فى إصلاح ذات البين . فقد جاء فى سورة النساء :
« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا »
فإذا عجز حكم من أهلها وحكم من أهله عن إصلاح ذات البين ، فقد آن إذن أن يكون « تسريح بإحسان » لأن الإمساك بالمرأة على كراهة بينة لا يرجى لها علاج يكون مضارة لها ، والقاعدة المثلى فى الإسلام أنه « لا ضرر ولا ضرار » ولذا جاء فى سورة البقرة :

«وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَمْتَدُّوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُ» .

وليست المرأة في جميع الأحوال تحت رحمة الزوج إمساكاً
وتسريحاً ، إذ يجوز أن تكون عصمة المرأة بيدها إن شرطت
ذلك عند عقد الزواج ، فيكون زمام الحياة الزوجية في عنقها
إن شئت أبقت ، وإن شئت فصمت .

وهذا هو الحد الذي يقول العقل إنه لا يجوز على حقوق
السعادة الفردية ، ولا يجعل الزواج أحياناً « عاهة مستديمة »
بغير مبرر عقلي ، وبغير مصلحة لسكائن من كان .

وقد يحتاج محتج بمصلحة الأولاد . وتلك رتب الإسلام فيها
أحكام النفقة ، وأحكام الحضانة . ثم ما من أحد يقول إن تربية
الأطفال في كنف أبوين متفاهمين متحابين أمر يستوى وتربيتهم
في كنف أحدهما دون الآخر . ولكن المسألة هي أنه إذا امتنع
التفاهم بين الأبوين كان من الخير ألا ينشأ الأولاد في ذلك
الجو الخافد اللدود ، فذلك أهون الشرين لهم . وهو كذلك أهون
الشرين للأبوين . وهي على أي حال آفة لا يقبل عليها عاقل وله
عنها مندوحة .

وقد لعن الرسول من يستخدمون رخصة الزواج بغير حقها

الإنسانى والشرعى ، قضاء لمآرب وضيعة . فجاء فى الحديث الشريف :

« لعن الله كل ذواق مطلق » و « لعن الله الذواقين والذواقات » و « لعن الله كل مزواج مطلق » .

ولحكمة واضحة جعل الطلاق على ثلاث مراحل . حتى يكون هناك مريض للمراجعة قبل أن تقع الواقعة . فإن سلطان الغضب غشوم . أما السكران والمخرج والمكره فلا يقع منه طلاق .

وأما القول بأن يكون القاضى هو الذى يصدر الطلاق لأسباب محددة ، مثل الزنا ، فقول فيه وجه غضاضة . لأن التحاكم فى دور القضاء فيه ابتذال للأعراض حتى تغدو مضنعة فى الأفواه وعرضة للجاجة والملاحاة .

إن صون الأسرار وأسباب الفراق هنا أليق ، وفيه من النخوة والبصيرة الشيء الكثير ، حتى لا توصم المرأة بما يعيبها ويموق زواجها مرة أخرى . وحتى لا يوصم بناتها أو أبناءها بما تردد فى قاعات المحاكم من مثاليها ، وما قد يصدر حكم القاضى تأسيساً عليه .

تم كيف لنا بتحديد الأسباب التي تجيز الطلاق بناء على
حطب الرجل ؟

إن الزواج مسألة حميمة . وقد لا يرى الغريب في المرأة عيبا .
ولسكن يجد الزوج فيها عيبا كبيرا . وليس من الضروري أن
يكون ذلك العيب جسيما أو محسوسا . فهناك اختلاف الطباع ،
مع كمال الأدب في الزوجين ، بحيث يمتنع بينهما الامتزاج
والتفاهم . أما ترى إلى الماء قد يكون من أجود الماء ، وإلى الزيت
قد يكون من أجود الزيت ، ثم لا يمكن بينهما امتزاج لاختلاف
المعدنين ؟ .

كذلك الناس معادن شتى ، قد يطيب كل معدن منها على
حدة وليس ضربة لازب أن يمتزج أى معدنين منها على الوجه الذي
تستقيم به حياة الزواج . وعندئذ يكون الافتراق خيرا وأولى ،
لأن كلا من الزوجين قد يصلح كل الصلاح للزواج بآخر ويحيا
حياة سعيدة .

فلا عيب في الدواء إذن ، ولا يطعن في صلاحه أن تطيش
به يد أو يشتط لسان . فلا يطعن على الماء أنه قد يشرق به
الشارب أو يفرق فيه المغتسل . ولا يطعن في الناد أنها قد تسكون

حريقاً لا يبقى ولا يذر . فالمعول كله على تقوى الله ثم على حسن
البصر ومراعاة الحذر .

ولا بد من كلمة أخيرة ، عن جواز زواج المسلم بالكتابية
— يهودية كانت أو نصرانية — في حين يمتنع العكس ، أى
زواج الكتابي — يهودياً أو نصرانياً — بمسلمة .

فاذا تذكرنا أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية
ولا يجحدهما ، عرفنا أنه لاغضاضة على الزوجة الكتابية في
الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم . ولكن اليهود
والنصارى جرى تقدير رجال الدين عندهم على إنكار الإسلام ،
فتكون المسلمة غير آمنة على دينها في كنف الكتابي . وليست
المسألة إذن مسألة عصبية أو تحيز في كثير أو قليل .

لا قيصر

« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! »

عالم مقسوم : شطره لله وشرطه لقيصر .

عالم مقسوم : شطره للقلب والروح ، وشرطه للحس والبدن .

عالم مقسوم : شطره للدين وشرطه للدنيا .

عالم مقسوم : وعلى المرء أن يختار شطراً منه ويتخلى عن
شطر . ويجعل بينه وبين الشطر المتروك سداً : سداً من عدا ،
أو سداً من إذعان سلمي هو كالعداء سواء بسواء .

تلك دعوة السيد الناصري ، وقد عدل بها عن سنن اليهود في
تملقهم بالملك ، وحرصهم على الدنيا ، فجعل الدين للقلب ، وجعل
العزة للروح . ونادى بتحقيق الدنيا ونبذها ، بما فيها من مال ،
وحس ، وبدن ، وملك ، وسلطان .

أقيصر بيده مقاليد الدنيا ؟ قل إذن ما الدنيا ، فإنك بمدها
تخليق أن تقول وما قيصر ؟¹ فليذهب قيصر بالدنيا على رحبها ،
فأعظم ما فيها عندئذ هين ، وأجل ما يكون من أمرها حقير .

ماسمت لك نفسك التي بين جنبيك من شوائب الدنيا . وزعزعت
السلطان وفتنته . فإنك في حزب الله أجل من قيصر شائناً ، لأنك
أحظى منه سكينه نفس وأمناً ، وأهدى منه سبيلاً .

ذاك نصيب من نفضوا من الدنيا أيديهم ، بل ونفضوا
تراثها من نملهم ، وسلكوا إلى ربهم سرياً إلا على من
يسرهم المولى له ، وهم قلة نادرة بين العالمين .. أما سواد البشر وهم
ملايين ومئات الملايين فلا هم قادرون على الانسلاخ من الدنيا التي
تضج في دمائهم قبل أن تضج فيما حولهم من المغريات والقيّمات
المقعدات . ولا هم قادرون إزاء هذه الدعوة أن يقبلوا على الدنيا
بقلب سليم وعزم مقيم . وإنما هو الفصام . وإنما هو التعلق بين
السماء والأرض ، عاجزين عن اليقين ، حيارى ما لهم من قرار .

أعز مكان في هذه الدنيا إذن دير من الديور أو صومعة
مفردة في مفازة بيضاء ، لا يطرقها طارق ، ولا ينطق فيها نطق ،
يخلو فيها العابد لوجه الله . فما الدنيا للإنسان بدار . وإنما هو قد
نماها وجفاها ، وما لبث فيه إلا ريثماً بقبضه ملك الموت فيتم عليه
ما اعتزمه منذ أمد بعيد وأوغل فيه من ترك الحياة .

وما كل امرئ بقادر على أن يكون راهباً في دير أو فاسكة
في صومعة . ولو قدر كل إنسان على ذلك لاضمحلت الحياة وباد

منها بنو آدم وورثها من الوحش وخشاش الأرض الوارثون .
وما كان تقاعس الناس عن هذه الخطئة ضعفاً منهم أو عجزاً ،
بل مطاوعة منهم لفطرة الله القاهرة التي فطرهم عليها حين ركب في
نفوسهم حب الحياة والإقبال عليها غير مختارين . فلو كان مراده
سبحانه من الخلق أن يستدبروا الدنيا ويخلعوا الحياة من وجدانهم
ومقاصدهم ، ففيم إذن كان خلقه للدنيا وخلقهم فيها ، وخلق
محبتها في قلوبهم فطرة لا حاجة معها إلى تعلم أو اكتساب ؟

وتغابت فطرة الخلق ، وثار الناس على الانصراف إلى الحياة ،
لا الانصراف عنها ، فكان إذن لابد من موقف من قيصر ، وفي
يده مقاليد الدنيا .

كان إذن لابد من انشغال الخاطر بأمر السلطة وأسلوب
الحكم وليس في الانصياع السلبي والتسليم للحكومة أى معنى
من معانى الاهتمام . فالاهتمام هم ومشاركة وعمل .

وبأى سند من المبدأ أو العقل أو العقيدة تتصدى لذلك
الاهتمام بالحكم وأسلوبه ، وقد قسمت الأمر بين ماهو لله
وماهو لقيصر ، فجعلت من قيصر في الدنيا نداً لله في عالم الغيب
والسريرة .

لابد هنا من وقفة حاسمة وضربة قاصمة ؛ حتى يصير الأمر
كاه لله ، بين دنيا الإنسان وأخراه .

ولهذا أيضا تصدى القرآن ، وانبرى الإسلام ، فحبا تلك
القسمة محوًا ، ووحيد مملكة الحق سفلا وعلوًا ، فجاء في سورة
الأعراف :

قُلْ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

فمن يكون هنا قيصر ؟ بل أين هو ؟

لا قيصر بعد اليوم !

« بَلَّ اللَّهُ الْأُمُورَ جَمِيعًا » .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » .

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » .

الله أكبر ولا قيصر بعد اليوم !

وليس قيصر الروم وحده هو الذي نعنيه حين نقول قيصر ،
بل كل حاكم يسوم الرعية الخسف ، ويستمد من غير الحق
والعدل والأصول الإلهية ساططانه على الناس .

لا قيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله « لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . كما جاء في
سورة الشورى .

بل إن الرسول ؛ وهو الحاكم الأول زمانا ومقاما وقُدوة ، كان

عليه أن يشاور المؤمنين في الأمر . وكذلك كان يفعل ، فقد ورد
في آل عمران :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

أنعطي ما لله وما لقيصر لقيصر ؟

ومن ذا يملك من الأمر شيئاً غير الله . . فهذا هو رسوله
والحاكم الأمر باسمه يجابه في آل عمران بأنه :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ! » ويقال له في سورة ق :
« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

لأجبار على المؤمنين . و « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » كما جاء في
سورة الحجرات .

الحاكم إذن يقوم باسم الأمة . وأى أمة ؟

« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » كما جاء في (آل عمران) .

هي أمة إذن وليست ملكاً موروثاً ، المؤمنون فيها أخوة
وليس عليهم جبار . وحكم الله فيهم شورى بينهم وليس حكمه
فيهم لأحد يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس أو الجماعة
منهم كأنهم أرباب لهم منزلة وسط بين الله والناس :

« قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » (سورة التوبة) .

لا كهان ولا أحبار . وإنما الأمر كله لكتاب الله وما أخذ
به عباده من سنة ارتضاها لهم .

وهكذا تنسق السرائر والمظاهر ، وتكون حكومة الناس
صورة من عقيدتهم . يحكم الحاكم بما أمر الله . وليس له أن
يكون على الناس جباراً ، وليس له أن ينفرد بالأمر دونهم . بل
إنه لا يكون حاكماً إلا بإجماع منهم ، وعندئذ يجب عليهم الطاعة
له ما عدل واتفق ، وعليهم أن يعينوه على الأمر بالمشورة والرأى
والطاعة .

« وَتَعَابَوْا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ » كما جاء في سورة المائدة .

ففي حدود البر والتقوى والعدل : « اسمعوا وأطيعوا وإن
استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » كما جاء في الحديث
الشريف .

للحاكم على الناس الطاعة ، ولهم عليه أن يعدل ، ويتقى الله ،
ويشاورهم في الأمر ، وأن يخفف لهم جناحه . فما هو إلا مؤتم

برسوله وقد قيل له في سورة الشعراء : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . .

أما إن ضلّ وغوى ، وأعجبته نفسه ، وفتنه سلطاناه ، فقد غدر بالبيمة التي له في أعناق الناس إذ جار عليهم . وما كان لهم أن يعينوه على الأمر . حتى لا يكون تعاون ، على الإثم والعدوان . وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » كما جاء في سورة المائدة . ولذا كان « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كما قال صاحب الرسالة في حديثه الشريف .

الأمر لله جميعاً .. والمؤمنون أمة الله ، في أعناقهم أمانة دينه وحقه وعدله . فمن فرط في شيء من ذلك كان مجترحاً لأمر عظيم . أليس الرسول هو القائل في كلماته الجوامع ، وحكمه النواصع : « كما تكونوا يولّ عليكم » ؟

بلى ! ! فلن يقوم جائر في قوم طبعوا على العدل . والحق . وكرامة العدل والغيرة على الحق !

بلى ! ! ولن يقوم عادل في قوم بهتان وذل . فإنه خليق أن يتعلم من تطامنهم الشموخ ، ومن اتقيادهم الصيّد والاستبداد . « كما تكونوا يولّ عليكم »

صدق رسول الإسلام . وما غادره صدق الإلهام ، وهو القائل :
« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ . وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » .

أجل يا رسول الخير والصدق والحق ! فالناس بخير ،
وحكومتهم بخير ، ما بقي للحق في قلوبهم مكان ، وللغيرة على
العدل في قلوبهم الكلمة والسلطان ؛ وما يؤس المنكر أن يجد
في قلوبهم الإغضاء والتواطؤ . وما أبوا أن يجعلوا ممن يحكمون
بالجور شركاء لله بالاستسكانة والإذعان .

صدقت يا رسول الصدق ؛ وصدق بمدد منك الإمام « محمد
عبد » حين قال : إن المول كله على « يقظة الأمة » : وأنه إذا
فقدت الأمة شجاعة إيمانها فلا خير لها في شيء من مظاهر المنعة
والحرية والاستقلال

أشورى بلسان ولا قلب ؟ واجتماع ولا صدق ؟
ذلك هو النفاق الكبير .

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » . . . ولكن « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ؟ (سورة الزمر) .

وما هو بسؤال وإعما هو إنكار أو استنكار . إذن « فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (سورة النحل) .

اسألوا أهل الذكر ، من يذكرون الله ويصدقون ويتقون
لا الذين يذكرون مصالحهم ومآربهم ويتزلفون ، ومن يبتغون
المال والجاه ، « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »
(سورة الحشر)

والأمة بخير ما أوتيت شجاعة الإيمان ، والحكومة
بخير ما وجدت ذلك الإيمان لها على رصد ساهر لم ينم ، ذلك
« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »
(سورة الرعد)

أجل ! « كما تكونوا يول عليكم » ذلك الحديث الشريف !
« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » (الكهف) .
« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (الأنفال) .

أيها الناس . أمركم إليكم . وحكومتكم منكم وبكم وإليكم .
وكلكم الله إلى إيمانكم . وأراد بكم الخير فلا تريدوا بأنفسكم
الضير .

لا قيصر بعد اليوم . بل لله الأمر جميعا . والله قد فوضكم
في أنفسكم ولم يجعل عليكم وكيلا ولا كاهنا ولا جبارا . وإنما

هو إيمانكم وعقلكم وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم
« كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » (سورة المائدة) .
وكأين من مفرط ترك راية العدل تسقط من قلبه اتباعا
لسلطان جائر أو طمعا في قربى لديه ، فقد أشرك بالله وباع دينه
واتبع قيصر . . وكفر بأن « الأمر كله لله » . « الذي له ملك
السموات والأرض » .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

فيمثل هذا يكون الملسكوت في الأرض ، ويمثل هذا تكون
عمارة الأرض . ويمثل هذا لا يكون المؤمنون بالله أذلاء بإيمانهم
أمام الطاغوت مستضعفين في الأرض . ولا يكون من يجبر
وخرج على الله أقوى فيها ممن قال ربى الله .

إن من « قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ » حقا ليسوا كمن قالوا « كُنَّا
مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ » .

تلك عقيدة تمت دنيا ودينا . لأن الدنيا فيها مسبار الدين .
والإنسان فيها مسدد اليقين . لا يعبد إلا رباً واحداً . حكمه في
الأرض خدامه وصالحوه . هو على نفسه ودينه وكيل مسئول .
وليس عليه فيها جبار .

« وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ »
(سورة القصص) .

تلك هي حياة القوة : قوة اليقين بالله لا قوة الحيوان أو
قوة المدوان .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . . » (سورة ق) .

مع الناس

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (سورة الحجرات) .

هذا مسلم به . ولكن ما القول في غير المسلمين ؟

« إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (سورة البقرة)

وما هي علاقة الأمم والشعوب فيما بين بعضها وبعض ؟ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .
إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ خَيْبٍ » (سورة الحجرات) .

لتعارفوا .. هذا لباب الصلة بين قوم وقوم وشعب وشعب .

إنما هي المعرفة والعرف والمعرف . والأكرم بينهم أكثرهم

تقوى . ومن اتقى الله ما ظلم وما بنى . وما افتات وما اعتدى .

تلك هي شريعة الإخاء . وهي شريعة الحرية ، التي لا تعرف

قيصر ، ولا تعرف عقدة إثم ، ولا تمنو حياة الخلق فيها لغير الله .

أفهي شريعة مساواة ؟ .

إنها لشريعة مساواة . وما هي شريعة تسوية ! هي شريعة عدل . والعدل أن يؤتى كل ذي حق حقه ، وأن يكون التقدير غرطا عن القدر .. كذلك تتفاضل الأقدار ، والأشجار .. أفلا تتفاوت بين الناس الأقدار ؟ .

« وَآدَ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (سورة الإسراء) .
أجل !

« أَهْلَ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ » (الزمر)
حاشا وكلا ! لا يستوون . وإن كابر الجاهلون ، أو ظلم الظالمون ، وإنما كانوا أنفسهم يظلمون ! بل :

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (المجادلة) .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . (الحجرات) .
« وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ » . (الأنعام) .
« وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيهَا أَنَا كُمْ » (الأنعام) .

كل إذن ينال على قدر عمله . ولسكن بغير بغى ، ذلك أنه يريد

« لِيَبْلُوكُمْ فِيْمَا آتَاكُمْ » . . . وبغير حبس الأرزاق أو استغلال للثراء أو إيثار للأموال الخاصة على المصلحة العامة .

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (التوبة) .

وسبيل الله منه ما هو حرب عدو بالسلاح ، وما هو دفع بلاء داخلي أو إصلاح أو منفعة عامة للجماعة كافة ... فذلك هو سبيل الله حقاً ، لأن الله غنيٌ عن العباد ، وإنما يريد وجه الله من نفع الناس وخفف عنهم ويسر لهم أمور معاشهم ، فذلك هو الإحسان وابتغاء سبيل الله « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » يتداولونه فيما بينهم استئثاراً واحتكاراً ، وتلك قلة المسفق بالناس وإذلالهم وإعناتهم في أرزاقهم .

كل في هذه الشريعة ينال على قدر عمله وقضله .

« وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »
(سورة التوبة)

سيري المؤمنون أعمالكم . وسيحاسبونكم عليه ويقدرونه لكم ، كما سيقدره الله .

هو العمل إذن ، ولكن لا للمعاش والمنفعة الدنيوية فحسب ،

بل ابتغاء مرضاة الله ومرضاة الناس ومرضاة خير الجماعة . وعلى قدر هذا يكون التقدير .

وهذا أمير المؤمنين ابن الخطاب يذهب في تقدير العمل النافع البناء لخير الأمة إلى حد ما بعده مزيد :

« والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بنير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة » .

ومن قال هذا فقد أراد أن الإسلام الصحيح أو الإيمان الصحيح هو العمل النافع للناس .

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » (سورة الرعد) .

صدق الله العظيم ! .. « ما ينفع الناس » ذلكم هو العمل وذلكم هو الفضل . وذلكم هو الفوز العظيم . وليس اكتناز المال ، واقتناء الصروح والضياع ، والاستكثار من الزخرف والمتاع .

وليس البر في البطالة والسجود . أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد ، كلا .

« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرُّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ،
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ (سورة البقرة) .
وعند قوله « عَلَى حُبِّهِ » وقفة لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ
الله أعلم بحب الناس للمال وهو القائل : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .. ولكن الإنسان المؤمن حقا من يؤثر الواجب
على هوى نفسه ، ويبذل المال لمن تجب عليه صلتهم ، فإن صلة
الخلق قربي إلى خالقهم ، فإنه بذلك « يقرض الله قرضاً حسناً »
اعمل ويسر للناس أن يعملوا ، ولا تحبس المال عن التداول
بين أيديهم كافة وابدل مالك على حبك له للأقرباء واليتامى
والمساكين والسائلين . ثم عليك بعد ذلك الزكاة « فريضة من الله » .
فريضة لا يراد بها الكسالى . بل من أفعدتهم عن العمل
الموافق ، على طلبهم له ودأبهم في ذلك . فالكسب من العمل
هو الأساس . ثم من لم يجد عملاً فعلى الجماعة واجب إعالته من
مال الزكاة .

دين عمل ، لا دين بطالة واستجداء .

ونعود كرة أخرى إلى قوله « على حبه » فإنها باب جانب كبير من العلاقات الإنسانية في دين الإسلام . وإنا لنجدها حينما ذكرت الصدقة ، سواء بالمال أو بالطعام ، فجاء في سورة (الإنسان) « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » . وفي (البقرة) : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » . ففي ذلك منزى الخلق الإسلامى وخاصته المميزة . فليست هذه الفروض من الأمور التنظيمية للمجتمع فحسب وليست من الأعمال التى يبتغى بها وجه المصلحة الاجتماعية ورق العيشة فى الأمة وصالح الأحوال بموجب عقلى . بل هو عمل خلقى فى المقام الأول يبتغى به وجه العاطفة الخلقية : وجه الواجب .

والفرق بين فعل عقلى وفعل خلقى فى هذا المقام ، هو الفرق بين ما هو بوحى من العقيدة وما هو بوحى من المصلحة ، نناق مداهما أو اتسعه .

فإننا نرى اليوم أعمأ بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعى المادى غاية مداه ، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة . واستأنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء .

لساذاً

وهنا ترسم علامة استنفهام ضخمة ، لأن هذا هو الفيصل

بين الروح والمادة ، بين العقيدة والعقل ، بين العاطفة والمصلحة .
بل بين الله والإنسان !

إن التنظيم الاجتماعى العقلى أو المادى يستوحى تحسين حال
المجموع بعامه ، تحسينا ينمكس على كل فرد فى ذلك المجموع .
ولكن السؤال الكبير هو أن هذا التحسن أو التقدم أو
اليسر أو الرخاء ، يصيب ماذا ؟ أو يصيب من ؟

إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدى ، وليس تحسيناً
لذات الآدى . وتقدم لأحوال الإنسان ، وليس تقدماً يصيب ذات
الإنسان ووجدانه . إنه رقى فى الكمية ، وليس رقىاً فى كيفية
الإنسان أو وجدانه أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة .

إن الإنسان المتقدم بمادياته وأحوال معاشه فحسب ليمجره
أن يجد لذلك طعماً وجدانياً عميقاً ، أو رقىاً فى قيمته ونهوضاً
بمعنى إنسانيته ، إنه كالقلب المزركش ولا زيادة

أما الإنسان الذى يحس ارتباطاً بين قيمته وبين قيم الكون
الكبرى . وبين أفعاله وقايسى الأبد . وبين وجدانه وحقيقة
الوجود . فالرضوان الذى يشمر به من أفعاله الأخلاقية وحسناته
الإيمانية رضوان إنسانى لحيوانى . روحى لآحسى . . بحيث
يفيض عليه من الأبدية ضوء ينير له مزيداً من الارتقاء فى

الرضوان ، والسعادة ، يمتد إلى ما وراء القبر .

وهذا هو الفيصل الأكبر بين سعادة المؤمن ورفاهية المادى .
بين يقين الروح وضياع السادة . بين حس الأخلاق وحساب
المصلحة الاجتماعية مهما امتد أفقها واتسع محيطها وعم رعاؤها
وهذه هى أخلاق الإسلام :

بذل للمال والطعام على حبهما ، ابتغاء لما فى الإيثار من شعور
بالنجدة ، وقياماً بالواجب الإنسانى والفرض الإلهى ، وطموحاً
إلى نعيم لا يزول بعدئذ لمن عمل صالحاً .

أخلاق أساسها الشعور بالواجب ، والقربى إلى الله فى
كل صفاته وآلائه الحسنى ، « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » .

وأى مثل أعلى يلتسمه الإنسان ويخطئه فى أسماء الله الحسنى ؟
إنه الرحمن ، الرحيم ، العليم ، الخبير ، اللطيف ، البصير ، السميع ،
المجيب ، الودود . . إلى آخر تلك الآلاء التى جلاها لعباده حقاً
لهم لا إعجازاً ! « لَا يُسْكَتُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » . « فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » .

إن المصدر السماوى للأخلاق فى العقيدة الدينية هو الحافظ
الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلكه وعواطفه فوق طبيعته
الأرضية ورغائبه الحسية وأنانته الحيوانية .

« وابتغاء وجه الله » .

هذا هو الحافز الأكبر على مكارم الأخلاق ، وبعد هذا فلا حرج على من يطلب مصلحة المجتمع لسبب عقلى ، ومن ينظمها لمهدف مادى .. فالإسلام لا يلغى العقل ولا يمجّد المادة . ولسكنه يضمهما فى حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق . فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان قتيلا . فيكون كمن ختم على سمه وبصره .

« فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » . (الحج)

إن التقدم المادى بغير السمو الروحى عمى مطبق . وقعود عن التحليق وارتباط وخيم بتراب الأرض ، ولو جعلته تبرا أريزا . وبعد هذا السمو الروحى ، فصالح الناس المرسلات أهل للرعاية ، وهم أعلم بشئون دنياهم .

وليس التنظيم الإسلامى لأمر الدنيا بنظام مقفل جامد . . بل هو التنظيم الجوهري الذى لبابه قول صاحب الرسالة الكريم :
« لا ضرر ولا ضرار » .

« وأنتم أعلم بأمور دنياكم » .

فالم يرد فيه نص بتحريم اسبب من أسباب العقيدة الروحية

فلا بأس على الناس فيه ، ما لم يكن فيه ضرر لصاحبه أو
إضرار بسواه .

خلق كريم وإيثار ونجدة ابتغاء وجه الله . واتقاء لغضبه في
معاملة الناس ، وإصلاح لحال الدنيا من غير إضرار بالناس ، وحرص
على مصالح الجماعة . وتعاون على البر والتقوى وابتغاء الرزق
بالعمل . وكفالة المتعطلي والمأجور عن الكسب بالزكاة . وترفع
عن الترف والإسراف في البذخ حتى لا تستقيم الروح لشهوات
الجسد ، فذلك هو النموذج الكامل للإنسان . يحب إخوته في الله
ويوفق بين دنياه وأخراه . . . ويقهر شره الحس في مسمائه
لا في صومته بقالة .

إِنَّ ذَلِكَ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

مع الله

مع الله في الأرض . وابتغاء لوجهه فيما تأخذ من الدنيا
وما تدع وفيما يمرض لك من المنافع والعلقيات . وفيما يتعمل بينك
وبين الناس من الأسباب .

تلك دعوة الإسلام .

« وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

أجل !

ولا تجعل الدنيا تلهيك عن ذكر الله . اذكره في كل حين .
ولكن عليك فرض من ذكره مفروض ، في أوقات معلومة من
الليل والنهار ، حتى لا تسهو عن ذكره . . . وباب النوافل مفتوح
بعد ذلك لمن شاء مزيداً من الإحسان .

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ
بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » .
(سورة الإسراء) .

« فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » .
(سورة الروم) .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، لَعَلَّكَ تَرْضَى »
(سورة طه) .

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ . إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » (سورة المنكبوت) .



هذا الركن من الدين لا يسمح للمرء أن يلمس ذكر ربه طويلا ،
حتى يرده السجود إلى الخشوع والتقوى ، فيخرج إلى الناس
والسكدة والسعي في طلب الرزق وبه إثارة من الخشية تنهيه عن
البغي والمنكر . ولا خير في صلاة بذهن شارد ، وقلب بارد ،
لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » (سورة المؤمنون) .
« وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (سورة البقرة) .

« قَوْلِيلٌ لِلْمُصَافِينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاعُونَ . . » (الماعون) .

نظام واحد يمسك الدين والدنيا ، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد ، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية ، من اتقاء الله في الضمعاء ، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأداء الزكاة للمعوزين ، والتعفف عن الفسوق ، فجاء في سورة (المؤمنون) .

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » .
وجاء في سورة (الذاريات) :

« كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .
وجاء في سورة (المزمل) :

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . وَمَا تُمَدَّدُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا » .

وليست أى صدقة تعد إحسانا . كلا !
 « قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ
 غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
 وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ كَالهٖ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (سورة البقرة) .

وبئس الصدقة ما كان رثاء الناس . وبئس الصلاة ما كانت
 رثاء الناس فلا تجعله رحما عفيفا :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ
 وَلَا يَخِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ
 عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »
 (سورة الماعون) .

وصلاة هذا شأنها ، تتكرر في اليوم جملة مرات ، لا يلهم
 منها بيع أو شراء . إنها إذن لسبب قوى بين الإنسان والله ،
 ومن يفعل ذلك . « فَوَيْلٌ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
 لَا انْقِصَامَ لَهَا » (البقرة) .

ولكن أين تكون تلك الصلاة ؟ هل لابد فيها من وساطة
 رجال الدين ؟

هنا تبرز خصوصية الإسلام في أمر الصلاة التي تقف المرء
 بين يدي الله جملة مرات في كل يوم .

كل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجداً ومحراباً .
لا هياكل بعد اليوم ! ولا كهانة بعد اليوم ! ولا وسطاء بين الله
والإنسان بعد اليوم ! ولا وصاية على ضمائر الناس ! فكلهم أمام
الرحمن سواء . والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها
ولا التواء . فمن شاء اتخذ لنفسه سبيلاً إلى ربه « والله سميع
عليم » . وليس من حق كائن من كان أن يتدخل بين المرء وربه ،
أو يدعى لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته .
وها هنا لا بد لي من وقفة .

إن السيد المسيح أعلن الحرب على مظاهرات اليهودية ،
وهدم تشكيلات الطقوس . ونادى بعبادة الضمير النقي .
وقال لمن يريد الصلاة أن يدخل مخدعه ويغلقه عليه ليصلي .
إني أعتقد أن المسيح نقض الكهانة ، لأنها تناقض عبادة
الضمير والصلة الخالصة المباشرة بين الإنسان والله . . . وأعتقد أن
كل ما التصق بالمسيحية بعد ذلك كان من عمل تابعيه . أما هو فلم
يرد في نصوص أقواله ما يبرر قيام الكهنوت .

من يطلب من الناس أن ينادوا الله بقولهم « يا أبانا الذي
في السماء » ، كيف يمكن أن يتجزى وسطاء بين الأب والأبناء ؟
إن قلب المؤمن هو هيكل الله الحق . ولا مكان في هذا
الهيكل إلا لضمير صاحبه وإيمانه .

بَرَحَ انْخَفَا،

لم يبق شك في أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور
البشرية الطبيعي .

جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض في العقيدة
الإلهية وأوجه العسر والعنت وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن
والروح في كيان واحد .

ثم مع هذا لم يقفل باب الاجتهاد في السمو الروحي . فما
كانت دعوة تهوين أو إسفاف . بل دعوة اتساع في الأفق وشمول
في النظر . يأخذ كل إنسان منها على قدر طاقته . ثم هو متروك
في أمر طاقته لضميره وسريته ، أن يقول صادقاً :

« رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا » (سورة البقرة) .

« لَا يُسْكَتُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » (سورة البقرة) .
فالمول عليه السريرة والنية والصدق . فهذا الدين — كما قال

رسوله — « يسر لا عسر » وهو دين متين « فأوغل فيه برفق » .
لا زيف في هذا الدين إذن . وهو مُلَبِّ حاجة البشر كافة ،
سوادهم وخاصتهم . لا مسح فيه ولا إنفاف ، ولا عسر فيه
ولا إجحاف . وإنما هو « صراط مستقيم » لا إعنات فيه للفسكو
السليم والبهادة السدينة .

برح الخلفاء . وأثبت هذا الدين نفسه دين هداية بالحق ،
وارتفاع بقيمة العقل عن الانسياق وراء المصميات والخوارق
الغريبة عن طبيعة معدنه في الاقتناع والتصديق . ورد اعتبار
البدن بوصفه هيكل الروح ، فهو ليس مصدر خزي لصاحبه .
ولا هو بالرجس وإنما الرجس في مقارفة المحرمات المحددة شرعاً .
وفي الإضرار بالنفس أو النير . وبغلبة الشهوة على صاحبها .
فصاحب الرسالة هو القائل .

« إن لبدنك عليك حقاً » .

والقرآن يكرر ذلك المعنى في أكثر من موضع :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » (البقرة) .
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » (البقرة) .
« لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » (المائدة) .
« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » (الأعراف) .

هو دين يسمع الناس كافة ، ويهديهم كافة ، ولكن حذار
أن يظن ظان أن دعوة الإسلام استهوت الناس بتملق غرائزهم ،
أو رشوة منافعهم وأثرتهم . أو إياسة الأهواء والشهوات :
فإن ذلك يكون ضللاً كبيراً ، وجنوحاً إلى عكس مضمون
تلك الدعوة .

إن الرسالة الإسلامية جاءت لتنظيم حياة الناس ، بحيث
يخرجون عن دائرة المنفعة الذاتية والأنانية بكل توابعها من
الشهوة أو الهوى ، والقسوة ، والظلم ، والإباحية .

فرضت على المرء أن يعمل ، وجعلت قيمته وشرفه معلقين
بعمله ، وسيرى عمله الله ورسوله والمؤمنون .

وفرضت الزكاة على الأموال ، وجعلت للفقير في عنق الغني
حقاً مفروضاً هو الصدقة .

وفرضت الصفيح والعفو ، ومحت الثأر والشحناء .

وفرضت الصلاة والصيام ، وحرمت البذخ والسرف .

وفرضت التواضع ، وحرمت الخيلاء .

وأحلت الزواج ، وحرمت الزنا .

وضيقت زواج الجاهلية فجعلت أقصاء أربعة ، وحضت على

زواج الواحدة .

وفرضت الأخوة والمساواة . وألفت العصبية والاستعلاء
بالنسب والجاه .

وحرمت الخمر ، وكل ما يخمر العقل فهو خمر ، فالخمر هو الغطاء . .
وكل غطاء للعقل حرام .

وحرمت الفسوق والتجبر والميسر والعدوان على حقوق
الناس وأعراضهم .

فلئن قيل : إن الإسلام اعترف بحق البدن ، فإنما يقال ذلك
بوجه معين ، أنه لم يغفل عن وجود البدن وفطرة الله البشر ذوى
أبدان ، لا ملائكة من نور . فهو دين حصيف شامل . لا يرهق
الناس من أمرهم عسراً . . . ولسكنه إذ يمتنع عن الغلو فى إنكار
الجسد ، لا يغلو فى إطلاق العنان له ، بل إنه يلزمه حدوده ، ويجعل
الزمام فى يد العقل كي يسلك صاحبه مسلكاً طاهراً ، يتمتع
بالطيبات مما أحل الله ، شاكراً له نعمه ، مبتغياً رضوانه . . . فذلك
البدن إذن أشبه ما يكون بمطية طيبة أخرى براكبها أن يرتحلها
إلى كل ما هو طيب ، ويتنكب بها كل ما هو خبيث من المحارم .

فإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وجدناها أبعد ما تكون
عن شبهة تملق الشهوات ، أو إباحة الأهواء . ورشوة المنافع
واللبانات .

كان العرب في الجاهلية أهل إباحة ، لا وازع ولا رادع .
قصفتهم مجون . ولهم فجور ، وحياتهم عدوان ، وكسبهم سحت ،
وليلهم خمر وميسر . فكيف يقال عن دين اقتلع جذور هذا
كله ووضع الحدود لكل وجه من وجوه النشاط البشرى ، أنه
استدرج هؤلاء بما تعلقه من غرائزهم وما أباح لهم من مبادئهم ؟
إن لم يكن هذا هو التنظيم والتضييق والسمو ، فماذا عساه
يكون ؟

ما فعل الإسلام إلا أن اعترف للمرء بحق الحياة التي براه الله
فيها وركب فيه فطرة حبها وطلبها ، فاستطاع الإنسان أن يعيش
غير مضطرب أو متأثم من طبيعته السوية ، وقد رسمت له حدود
تتفق وواقع فطرته ، وتسمح له بالتسامي ما استطاع . ومن لم
يستطع فلا تثريب عليه . وفي رحمة الله الذي خلقه وعرف
ضعفه متسع .

ومن سمي هذا التوسيع لباب رحمة الله ، والاعتراف بفطرة
الله التي فطر عليها بنى آدم ، إباحة أو تعلقاً للشهوات فإنه إذن
للمغالط أو مغالط . أترى إن قيل للناس : لا تتنفسوا . أيكون ذلك
معقولا مقبولا ، وتكون إباحة التنفس تعلقاً لأهوائهم
أو رغباتهم ؟

بل ذلك هو تقدير الاستعانة وعدم قطع الناس عن رحمة الله
فلا تكون لهم حجة بمدى تمدى حدود العقيدة وقد نظرت إلى
حقيقة طبائعهم بغير إعنات .. وهذا هو القسطاس الحق في
تنظيم أمور الناس من غير تحيف بحيث يطبق كل منهم تسويده
العقل والروح على فوازع نفسه . ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا .
وما جاء الرسل بالأديان بلاء للناس بل رحمة .

بريح الخفاء . والرسالة رسالة حق .

بقى إذن أمر الرسول . وهل هو رسول صدق . فإن « الله أعلم
حيث يجعل رسالته » ، فهل كان الرسول أهلا لهذه الرسالة ، جديراً
بشرفها العظيم وقدرها الكريم ؟ .
ذلكم هو موضوع هذه الصفحات .

شجاعة الإيمان

إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب رسالة هو مبلغ إيمانه بها متى امتحنته الخطوب ولقى في سبيلها العنت والبلاء والاضطهاد .

إن الرسالة التي تسير بصاحبها على مهاد من الود ، ويكون هدفها النعم له أو لذويه لا تدل على إيمان ، بل على وصولية وطمع أو طموح .

وأيا كان المقياس الذي تقاس به دعوة الإسلام ، فلن نجد فيها دليلاً واحداً ولا شبه دليل على أن الغرض منها خدمة شخصه من قريب أو بعيد .

كان موفور الرزق موسماً عليه ، فبدل من ذلك ضيقاً وشظفياً .

كان آمناً في سربه ، فبدل من ذلك قاتماً ومطاردة وارتياحاً .

كان موفور السكرامة والمكانة بين قومه ، بالنسب الرفيع ، والحسب المنيع ، فبدل من ذلك إهانة وتحقيراً وازدراء .

كان وحيداً أعزل لا أمل له في نصرة أحد على قومه ،
وهم أئمة الشرك ، وحراس الكفر ، وأولياء عاصيته
الستفيدون منه .

أما أهله فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم . وأوذوا بسببها في
أرزاقهم ، وفي أعمالهم ، وفي أشغافهم . وتعرضوا لما تعرض له
من التهلكة أكثر من مرة .

وما كان مضمون الدعوة حين يكتب لها النجاح ليضفي عليهم
شيئاً من المنافع . فهذا الدين لا يجعل لرسوله مرتبة فوق مراتب
البشر ، أو حظاً من نعيم الدنيا ومتاعها فوق حظوظ سائر الناس
فضلاً عن آله .

كلا ! فهذه نبوة وليست ملكاً . ولا وراثية في النبوة .

كلا ! بل هذا الدين يمحو ما كان لقبيلة هذا الرسول قبل
ذلك من سيادة وامتياز وطيد الأركان . فالناس في هذا الدين
سواسية كأسنان المشط . . وهذا الرسول هو القائل : إنه لا فضل
لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى . . وإن
عصبية الجاهلية موضوعة !

دعوة لا تحمل لصاحبها بموازين الدنيا جيماً إلا الخسران

ولا تحمل لقومه — على افتراض نجاحها وظفرها — إلا ذهاب
الرئاسة وضياع الجاه .

بل وحين كتب لهذه الدعوة الظهور وتم الفتح المبين ، ولم
يظفر صاحبها بمفهم ، ولم يكن حظه من إقبال الدنيا إلا أقل من
حظ عامة جندة وفقراء رعيقته . لم يجعل لفئة من الناس فضلاً على
فئة . . بل صار الأمر كله للمؤمنين كافة .

لا منفعة إذن ولا شبه منفعة لصاحب هذه الرسالة من بداية
دعوته حتى المنتهى . ولا تسخير للدعوة لخدمة مآرب ذاتية
أو أهواء حزب من الناس أو فئة . وصح إذن أنه ما كان ينطق
عن الهوى وأنه « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » .

هي من هذا الوجه دعوة مبدأ وإيمان ، وليست مطية
هوى .

هذا الإيمان بماذا يقاس إن لم يكن مقياسه الثبات عليه في
أشد الظروف حليكة وأدعائها لليأس ؟ وإن لم يكن مقياسه الصبر
في سبيله على المسكاره ؟ .

وإنها لمسكاره من كل نوع . لعل المعتوى منها أقسى من
المادى . ولعل حرج النفس فيها أعنى من الضرب والإيذاء البدنى
بالغاً ما بلغ من العنف .

لم يساوم هذا الرسول ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته ، على كثرة فنون المساومات ، واشتداد الهن .

وهناك موقف مشهور جداً من تلك المواقف . هو موقفه من عمه أبي طالب حين قال له : إن قريشاً تشدد عليه الكبير بسبب ما يبسطه عليه من حمايته . وإنه — على كبر سنه — مهدد باجتاعهم على مقاطعته وعداوته . وقد قالوا له :

— إنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وتقدم عمه إليه بقوله :

— فأبق على وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق .
فهذا عمه ، حصنه الأوحد وحاميه يوشك أن يتخلى عنه .
ولن يكون بعد ذلك إلا الهلاك له هلاكاً مؤكداً .

إما هذا وإما أن يخرج عمه ويبقى على حمايته له ، فبمعرض
معه لالهلاك في تلك المعركة التي لا تكافؤ فيها .

وعمه . . من عمه ؟ .

إنه الذي كفّل وربى بعد هلاك الجد ذلك القتي اليتيم . إنه

الذى دال وأعز هذا اليتيم . وأردفه على راحلته حين تعلق به صغيراً وقد تجهز للسفر إلى الشام ، فلم تطاوعه نفسه أن يفارقه باكياً ، وصحبه حيث ذهب .

ومحمد أوفى الناس بالمعروف ، وأحفظهم للوداد ، وأبرهم وأقسطهم . أى خرج شعر به أمام ذلك الرجاء ؟ أى تورط ؟ أى امتتحان لخلال البر وعرفان الجميل والنخوة ؟ .

لو كان شيء من الأشياء ثانياً محمداً عن إيمانه ، لكان هذا الحرج ، ولو كان الأمر بيده بأى صورة من الصور لما صمد لهذا الامتحان . ولو كانت قوة لتزعزعه عما تجرد له لكان هذا التوسل من أبى طالب .

إن الامتحان النفسى فى هذا المقام ، والإكراه المعنوى والضغط الأدبى لمى أعنف ألف مرة من اللطائف والبهقات التى كملت له من سفهاء القوم .

وأطرق محمد .. وما أحسب هلاكه كان أهول لديه من تخييب رجاء عمه وكافله .. فحق لمن فى مثل نخوته وبره أن يطرق ويهتم . وهو يتعرض لتهمة العقوق .

ثم كانت الكلمة التى لا تنطق إلا عن منتهى شجاعة الإيمان ورسوخ اليقين بما هو بسبيله .

— يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . .
من كابر في صدق هذا الإيمان ، فهو مسكين لا يميز الإيمان
من الدجل ، ولا الصدق من الهزل .

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه ، بل ثابر على نصره
ومنه وقال له مأخوذاً بذلك الإيمان :

— إذهب يا بن أخي فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك
لشيء تكرهه أبداً . .

واحتمل آله العنت بسبب ذلك . . فكان فضل أبي طالب
مضاعفاً بعد هذا اليوم الفاصل .

ثم يحضر الموت هذا العم النبيل الذي ضمه بحنانه وحمايته
وإحسانه صغيراً وكبيراً ، حدثاً وكهلاً مطارداً مبنوضاً . . فإذا
بالرسول يطالبه بأن ينطق بالشهادة كي يستحل الشفاعة له بها
يوم القيامة . . فيأبى على أبي طالب حفاظاً وخشية أن يرى
بشبهة الجبن أمام الموت والضعف أمام وعيد يوم الحساب .

وتحشرج الروح ، ويميل على أبي طالب أخوه المباس يسمع
ما يهمس به في لحظته الأخيرة ، ثم يقول المباس لابن أخيه : إن
المحتضر نطق بالشهادة وهو في الرمق الأخير . .

وعلى شدة حبه لعمه الراحل ، وتعلقه به ، ورغبته في نجاة نفسه لقاء ما أحسن إليه ونافع عنه ، لم تتحرك فيه خالجة ، وقال بجمود الراسخ : إنه لم يسمع .

وغيره في مل هذا الموقف كان حرياً أن يبادر إلى التصديق على عهدة الراوى ، وهو عمه العباس . كي يجد في ذلك عزاء وسلوفاً وراحة إلى أن عمه وكافله المحبوب لم يمت كافراً وليس معيره جهنم ذات السعير .

ولسكن شجاعة الإيمان تأبى عليه هذه الراحة التي كان وزرها على سواء . فحينما تعرض الأمر لدعوته وعقيدته ، فلا محل للمجاملة ، مهما قويت بواعثها من كرائم الخلال .

أهذا شأن من يملك من الأمر شيئاً ؟ أهذا شأن من لا تسيطر عليه قوة قاهرة ، أقوى من مراده وهوى نفسه ، هو إزاءها العبد المأمور ؟ . .

لذلك ، هو الرسول الأمين حقاً ، الذى يقول له ربه « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .



لامساومة / وكيف يساوم من لا يملك من الأمر شيئاً ؟ .

هاهو ذا يدعو القبائل في موسم الحج إلى ربه ، يقف بمنازلهم .
فمنهم من يمرض ومنهم من يستخر . وها هو يقف يوماً على منازل
بنى عامر ، ويتكلم في يقين وبساطان . . وأى سلطان أعلى من
سلطان اليقين بالعزير ذي الجلال ؟ .

ويبهركبير القوم بما سمع ، ويراها فرصة يجدر به أن يهتبلها
عسى أن تكون لقومه بذلك الداعي رئاسة أو يحدث لهم ذكراً
وحاها . فيقول له :

— أى محمد ! أفإن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من
خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

مساومة معقولة لدى امرئ يعرف المساومة فإنه يطلب إلى
قوم أن يتبعوه ويعنموه حتى يبلغ أمانة الله ويؤمن به الناس كافة
وفي ذلك من البلاء والمشقة ما فيه . بل فيه من الهلاك للأنفس
والأموال ما فيه . وفي منطق المساومة وتبادل المنافع لا بد من
مقابل لكل خدمة تؤدي أو منفعة ترجى . . فليكن الأمر إذن
كما يطالب به شيخ بنى عامر . فهو عرض معقول ، يصلح أساساً
على كل حال للمدارسة بين الطرفين .

ولكن محمداً لا يساوم .

ولكن محمداً مأمور ليس له من الأمر شيء .

ولكن محمداً لا يرى الإيمان بالله منةً للمؤمنين على الله ورسوله
بل منةً لله على المؤمنين . هداهم من ضلال . ونصر الله حق عليهم
كفاه هذا الفضل العميم . وشتان بين هذا المنطق ومنطق المساومة .

وكان محمد وحيداً لا يكاد يجد لدعوته سميماً .

وكان محمد مطاردأ لا يجد مانعاً ولا نصيراً .

ولكن محمداً لم يقبل المساومة في أمر هو من شأن الله
وحده . وهو لا يملك من الأمر شيئاً .

— الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء !

ما هذا قول مغامر مساوم مداور . هذا قول لا يصدر إلا عن
شجاعة إيمان نادر . ساطان إيمانه عليه قاهر ، لا حيلة له فيما يأخذ
وفما يدع .

وأكثر من هذا لا يهتز له إيمان محمد .

هؤلاء ذؤابة قومه قريش يجتمعون عند الكعبة ورسولون
إليه . ويقول قائلهم له :

— يا محمد ! إنا واللات مانع من العرب أدخل على
قومه مثل ما أدخلت على قومك . فإن كنت إنما جئت بهذا

الحدث تطلب به مالا جئنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وإن كنت تريد به ملسكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا تراه قد غلب عليك : بذلنا لك أموالنا في طلب العطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

هو إذن ملك حاضر بغير عناء أو جهاد أو انتظار . و ثراء مائل لاضرورة معه لجهد أو اضطبار . فما يفتنى مغامر نفعى سوى ذاك ؟ .

وأي مساومة هذه ؟ إنها أشبه بالتسليم المطلق من كل قيد . إلا أن يدع ما هو بسبيله من الدعوة .

ودون هذا خرط القتاد !

ودون هذا شجاعة الإيمان التي ما كان عن سواها يصدر جوابه على تلك المساومة التي يسيل لها اللعاب :

— ما بى ما تقولون ! ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا . وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . فإن قبلوا منى ما جئتمكم

به فهو حظكم من الدنيا والآخرة . وإن تردوه عليّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم !

كلام العبد المأمور الذي ليس له من الأمر شيء ، كلام الرسول المكلف بالبلاغ الأمين ، ولا مأرب له من وراء دعوته ، وقد استنفدت المأرب في ذلك العرض الذي شمل كل شيء ، من الجاه المريض إلى الملك العضوض .

ولكن معاذ الإيمان ، وشجاعة الإيمان . ما الملك ؟ وما الجاه ؟ وما الثراء ؟ .

هباء هي ، أو أهون من الهباء .

وفي أي وقت يقول هذا ؟ وفي ثبات من لا يشعر أنه يفعل أصراً خارقاً أو يهيم بمقاومة إغراء تحشد الحاسة من جوانب النفس للاقائه ؟ .

في وقت عزّ فيه النصير ، وطارده السفهاء بالأذى في قريش وغير قريش أينما ذهب يقوم بأمانة الدعوة ، حتى بلغ منه الضيق مبلغه وحزبه الأمر ، وصاح ذات يوم بصوت يخنقه البكاء :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين وأنت ربّي ! إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدوّ ملكته أمري ؟ إن

لم يكن بك على غضب فلا أبالي ! ولكن عافيتك هي أوسع لي !
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصالح عليه أمر
الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك .
لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك !

أى شيء هذا إن لم يكن غاية الغايات من شجاعة الإيمان ؟ .
ضرب وشج وتحقير في كل مكان : حتى يصرخ هذه
الصرخة من قلب صديع ، ثم لا يعنيه من ذلك شيء ، سوى
خوفه أن يكون بالله عليه غضب ! فلا يكن ربه غاضباً عليه ،
فهو لا يبالي ! . . ثم يعنى بانقلاب الحال إلى ملك مؤئل وثرء
مذل ، فلا يفكر في شيء من ذلك طرفة عين ، ويعرض عنه
بغير مبالاة .

فإلا يكن هذا هو الصديق الصادق ، فقد ارتسكت مقاييس
تجمل من صاحب هذه المواقف ومثيلاهم مساوما مغامراً طالب مغنم .
وسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمهم شأن قوم
على ألا يعدلوا .

وسلام على الصادقين .

لا ادعاء

من لم يكن صادقاً في دعواه ، فهو دعي لا يسلم من أعراض
الادعاء مهما تصنع الصدق .

وتجتمع أعراض الادعاء في انتحال صفة أو قدرة أو حق
ليس للمرء حقيقته .

وما كذلك كان أبو القاسم .

لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقاً يستعمل بها على أحد ،
أو يرتب لنفسه بها سلطاناً أو تقدماً .

ولو كان القرآن من صنعه ما حرص على أن يكون فيه كآحاد
الناس لا يزيد . ليس عليه إلا البلاغ .

عليه البلاغ . ولكن أي شيء له ؟

لا شيء . ثم لا شيء . ثم لا شيء .

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

أمرؤ عليه وليس له .

أين من ذلك دعوى الأدعياء ؟ .

ولما طوب بالمعجزات لم يتوجه إلى ربه يسأله أن يؤيده
بخارقة بل خوطب مأموراً بما يقول لهؤلاء :

« قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ :
وَكَلَّ كُنْتُ أَهْلُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ
السُّوءُ : إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأعراف) .
« قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ »
(الأنعام)

لادعوى ولا ادعاء . ولا مظاهره من الخوارق والبوارق .
وإنما الهداية إلى ما تطمئن به النفس ويستريح إليه العقل :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ »
(الأنعام)

« أفلا تتفكرون ؟ » .

بحجة الفكر الناشط من عقاله تقدم أبو القاسم إلى الناس ،
ولا حجة له سوى هذا . فإما هو بصاحب معجزات . ولا هو يمتنى
الناس بخزائن لا يملك مفاتيحها إلا الله . ولا يمدحهم بدفع السوء

عنهم وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه . ومن لم ينفعه عقله في الاهتداء إلى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال فهو أعمى . « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ » : وليس بنافعه إذن خوارق المعجزات .

* * *

بل إن هذا الرسول حينما وقعت له تجربة الوحي أول مرة وهو يتحدث في غار حراء صائماً قائماً يقلب طرفه بين الأرض والسماء . جياش النفس منقطعاً عن أهل مكة بما هم منصرفون إليه من الدنيويات والقصف والمتاع الحسى الغليظ ، لم يأخذ هذه التجربة مأخذ اليقين ، ولم يخرج إلى زوجه خروج الوائق بها المتلهف على شرفها . بل ظن ذلك في أول مرة رؤى من الجن . وارتعدت فرائصه من الروح وقد ثقلت على وجدانه تلك التجربة الفذة المخارقة ، ودخل على خديجة وكان به رجفة الحمى فدثرته ونام مطمئناً إلى أمومتها الحانية بعد أن وعدته بالرجوع إلى فريها ورقة بن نوفل وهو من نصارى العرب .

واستيقظ محمد فصحبها إلى هناك وقص على الشيخ الكتاني ما وقع له في الغار من الرؤية والسمع . . وأطرق الشيخ هنيهة ثم قال لقريبته خديجة :

— قدوس قدوس ! والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه
الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى .

واطمان محمد قليلا ، ثم تراءى له الوحي وهو في سِنَّةٍ من
النوم فتقل تنفسه وتفصد جبينه بالعرق ونزات عليه (سورة المدثر) :
« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَبَيْنَاكَ
فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .
ونَهَضَ محمد مرتجفا مأخوذاً . ورأت خديجة ما به من روع
فدعته إلى النوم ليصيب شيئاً من الراحة فقال :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة . فقد أمرني جبريل
أن أنذر الناس . وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن ذا أدعو ؟
ومن ذا يستجيب لي ؟

وليس هذا حال دعى يافق دعوى للناس لا يؤمن بها .
ليس هذا حال المتصدى لأمر عن هوى . ليس هذا حال ملفق
دجال بل هذا حال رجل متحرج لا يريد أن يصدق ما تراءى له
إلا ببرهان وبقين . فقد فوجيء بما وقع له وتولاه الروع والفزع .
هو إذن تسكليف لا تأليف .

وهو تسكليف مرّ شاق : ألسنت ترى هذا الرفه الناعم
في ظل زوجة هي أشبه له بالألم ، يقول لها في حسرة وأسى :

— انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ! ؟ .

ألسنت ترى هذا المتحسر المروع حائراً لا يدري ما يصنع
بهذا التكليف . من ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لي ؟
ما هذا قول مفامر دعى أفاق يلتمس مغنا ويرسم خطة
للكسب أو يهتبل فرصة مواتية للظفر . بل هذا قول من يرى
نفسه مأموراً بما لا يكاد يطيق ، والطريق أمامه مسدود . فمن ذا
يدعو في عاصمة الأوثان إلى عبادة الله ؟ ومن ذا يستجيب له بين
سدنة تلك الأوثان ؟ وإن هذا الحائر المتحسر لا يدري بعد خطورة
ما هو بسبيله . شأن من دبر أمراً وبيته بليل وحسب حساب
العواقب . وإنما هو فارغ الذهن من ذلك كله . لا يحز به
إلا من يدعو إلى ربه ومن ذا عساه يستجيب لتلك الدعوة التي
أقيمت على كاهله إلقاء . فلما قال له ورقة بن نوفل :
— ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . إذن لأنصرنك
نصراً مؤزرأ .

قال محمد متمجباً :

— أو مخرجي هم ؟ .

فقال له الرجل المجرب المطلع على تاريخ الأنبياء :

— لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن

يدركني يومك لأنصرن الله نصراً بعله .

« أو مخرجى هم » ؟ .

كلمة كافية وحدها للكشف عن مدى خلو باله من غاية الشوط الذى أمر أن يأخذ فيه . وأنه لم يفكر فى ذلك من قبل ولم يعد له عدته . ولم يوازن بين فرص الربح وفرص الخسران وبين جانب الفوز وجانب الخذلان ، وبين الثمن الذى يزعم أن يدفعه سواء خذل أو ظهر .

أجل : هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير البهيم لما يزعمه وحيًا وتسكيفًا ، لو نظر فيها من له قاب سليم من الأهواء .

وشرع محمد كما أوحى إليه ينذر عشيرته الأقربين ، وآمنت خديجة به فكانت أول المؤمنين . ثم انتظر محمد أن يدلّه الوحي على ما يفعل لإبذار الناس ومحاقتهم وهدايتهم . فإذا الوحي يبطل عليه . حتى ظن أنه كان مخدوعاً فيما تراءى له من قبل ، أو أن ربه انصرف عنه بعد أن اصطفاه . وتملكه فزع ووجل .

وطال انقطاع الوحي ، وهو حائر يتردد بين حراء ودروب الصحراء . واشتد به الأسى حتى ظن أن ربه قلاه ، فحزن واغتم وراود قلبه اليأس لولا أن ظهر له الوحي ونزلت عليه سورة الضحى المشهورة :

« وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُمْطِئِكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ
فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

عجباً ! فيم هذا العذاب كله لو كان محمد واضح هذا القرآن
مدعيًا ملفقًا ؟ ما كان أغناه عن فضيحة فتور الوحي لو لم
يكن أمينًا غير متصنع ولا مموه . وإنما هو الصدق الصراح بغير
تعديل أو تحوير ؟ ..

ثم مسألة الروح ..

سأله القرشيون خارقة ، فقال « إِنَّا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »
فسألوه عن الروح ما هي ؟ .. فقال لهم :
— أخبركم بما سألتهم عنه غداً ..

ثم يعصى نيف وأسبوعان ومحمد لا يأتيهم بخبر الروح كما
وعد ، وما عهدوه من قبل مخلقا . ولا سببا وهو اليوم في مقام
التحدى لصدق دعواه .

وأبطل الوحي . ومحمد مكروب لهذا الإبطاء . يتوسل ويتحدث

ويفرغ إلى الله أن يرفع عنه هذا البلاء وينزل إليه وحيه ليرفع بين المشركين رأسه .

وما إن يظهر جبريل أخيراً حتى يمات به محمد لاحتباسه عنه ويصارحه أنه ساء ظناً لذلك الاحتباس فيكون الوحي .

« وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

ما كان أغناء عن هذا الكرب وهذا البلاء . وتعرضه لسخرية قريش وقد وعدهم الجواب غداً ، لو كان يملك القول من نفسه ، ولم يكن الأمر لربه ؟ .

« وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » .
« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

تأنيب واضح ، يرد الأمر إلى من بيده الأمر وما هو بقول دعي ، وما هو بمسلك المستقل بشأنه . وإنما هو المأمور ، الصادق بالأمر ، الصادق في أمانة البلاغ المبين .

وما من دعى إلا وهو مطية الشعور بالنقص ، فيدفعه ذلك
إلى المغالاة في شأن نفسه ، والتزيد في مدى قدرته .
وما كذلك كان محمدا

مر بقوم على رؤوس النخل ، فقال :

— ما يصنع هؤلاء ؟

فقالوا :

— يلتحقون ، يجمعون الذكر في الأنثى فتلقح .

فقال :

— ما أظن يعني ذلك شيئا .

فأخبروا بذلك فركوه صادعين برأى الرسول . وتبعيت

غلة النخل ذلك المام وخرج شيئا ، فذكروا له ذلك فقال .

— « إنما أنا بشر . إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به .

وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر . أنتم أعلم بأمور دنياكم ا »

وقيل إنه قال :

— إنما ظننت ظننا ، فلا تؤاخذوني بالظن ا

لم يرج عليه ، ولم يكابر . ولم يسؤه أنه أخطأ الظن . بل

اعترف أنهم أعلم بشئون دنياهم . وما هكذا يكون موقف دعى

يستولى عليه شعور النقص وهو أبين الأمراض التي تنتاب

الأدعياء . .

وأكثر من هذا :

سمع فوما يختصمون ببابه ، فخرج إليهم . وإذا به — وهو
الرسول المسموع المطاع يومئذ — يقول لهم .

— إنما أنا بشر ، وأنه يأتيني الخصم فلعل بمضكم أن يكون
أبلغ من مض فأحسب أنه صدق فأفضي له بذلك . فمن مض
له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها !
إنما أنا بشر أخطئ وأصيب

تلك مقالة من لا يخطر له الادعاء ببال ، وإنما هو يذكر ويذكر
دواما أنه كسائر الناس . وهكذا الصادق الذي لا يشغله تمويه
حقيقته ليبدو أفضل مما هو .

وسلام على الصادقين .

الجهاد الأكبر

الجهاد الأكبر جهاد النفس . .

هو قائلها . وإنه في ذلك الجهاد لفارسه المعلم ، وبطله الذي لا يشق له غبار .

رجل فرد هو لسان السماء . فوقه الله لا سواء . ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين . ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر . بل يشفق ، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته ، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه .

ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيدى ، وما استقام له من السلطان ، اعتد بذلك كله واعتز ، لما كان عليه جناح من أحد ، لأنه إنما يعتد بقيمة مائلة ، ويمتز بمزية طائلة .

يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه ، فيقول لهم .

— لا تطروني كما أطرت النعماري ابن صريم . إنما أنا عبد الله ، فقولوا : عبد الله ورسوله .

ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيماً له ، فينهضون عن ذلك قائلاً :

— لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً !
وعرض المريض من أدنى الناس فينوده . ويموت طائر يلعب به طفل هو أخو خادمه فيعزيه في مصابه ، وقد يدعو عبد أو مسكين إلى طعام فلا يمتنع . ويداعب الأطفال من أبناء تابعيه وأصحابه ويجلسهم في حجره . ويمازح أصحابه ويتبسط في الحديث معهم . ويعنى نفسه بقضاء حاجة الفقير والضعيف ، ويؤاكل خدمه ويشاربهم ، ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم في البيت وغير البيت .

وكان حفيده الحسن بن علي من فاطمة الزهراء يركب ظهره وهو يصلي بالناس ساجداً ، فيظل على سجوده حتى لا يمجه لينزل من ظهره !

وقد ينهض لخدمة ضيوفه بنفسه تزيدياً من إكرامهم . كما فعل بوفد نجاشي الحبشة .

ذلك هو الرسول الذي خاطبه الله في القرآن قائلاً :

« وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .
وأى خفض جناح أكثر من عدله وقصاصه من نفس كلما كان لأحد لديه حق ؟

فما هو ذا يوم بدر ، والمركة غير متكافئة بين المسلمين وقريش . وهي بعد أول معركة يخوضها المسلمون ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة كله ، لأن قريشاً — على حد قول الرسول وهو يقصرع إلى ربه يسأله النصر — « قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتسكذب رسولاك »

في هذه الموقعة ، والموقف متحرج غاية الحرج ، أخذ النبي يسوي الناس صفافاً ، ليستقبلوا العدو على تهيئة ونظام . وكان في يده عود يشير به إلى من يأمره فيتقدم أو يتأخر ليستوي الصف

وخرج رجل من سواد الجند عن الصف ، اسمه سواد بن غزية ، فدفع النبي بالعود في بطنه ليستوي : فقال له سواد : — يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ! فأقْدِنِي يا رسول الله وَمَكِّنِّي من نفسك لأقتص منك ! ووقف النبي متمهلاً كي يقتص منه سواد دفعة في البطن بدفعة في البطن ، ولكن الرجل قال :

— إن عليك قيصاً وليس عليّ قيص !

فرفع الرسول قيصه عن بطنه متأهباً للقصاص من نفسه ! وليس يعنينا أن الرجل لم يقتص من النبي ، بل عاتقه وقبل

بطنه العارى ليكون مس جلده آخر عهده بالدنيا.. فما كان الرسول يتوقع هذا ، بل كان يتوقع المقاصة التى تهباً لها عن طيب خاطر .

وتحضر النبى الوفاة ، وقد هدى الناس وأمههم ، « وما كان براعى غنم يتبع بها رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب منه فى المسلمين » كما قال عمه العباس ، فلا يعنيه فى آخر خطبة له بالمسجد وقد تحامل على نفسه وبرز إلى المسجد إلا أن يقول :

— أيها الناس ! ألا من كنت جللت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخشى الشعراء من قبلى فإنها ليست من شأنى ؟ ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس !

ما أعظم وما أروع !

ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها إلا سرت فى جسمى قشعريرة ، كأنى أنظر من وهدة فى الأرض إلى قمة شاهقة تندخلع الرقاب دون ذراها

أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، إذا أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، تراك

بحاجة إلى هذه المقاصة كي تلقى ربك طيب النفس وقد غفر .
لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر
ولكن العدل عندك مبدأ . العدل عندك خلق ،
وليس وسيلة .

وعسير بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مرات الأنبياء

وزهدك يا محمد ؟

زهديك وقد أحلت لأمتك الطيبات ، وحببت إليك ؟ .
هذه أم سامة زوجك تصف ما وجدته في دارك ليلة عرسها
— نظرت فإذا جرة فيها شيء من شعير ، وإذا رحي وبرمة
وقدر وقعب . فأخذت ذلك الشعير فطحنته ، ثم عصدت البرمة ،
وأخذت القعب فأديمته ، فسكر ذلك طعام رسول الله صلى الله
عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه !

وكل كلام بمد هذا الوصف الساذج الصادق فضول غث في
التعليق على زهد الرجل الذي لم يؤت أحد في زمانه سلطاناً على
أصحابه كما أوتي ، لولا أنه يرى برهان ربه رأى العيان ، فتصغر
في عينه الدنيا وما فيها . . . ويؤثر على نفسه ولو كان به
خصاصة ويؤثر على آله ولو كان بهم خصاصة . ولا يدخر لغيره شيئاً .

أليس قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى فوت عياله ؟
ومن هو ؟

هو السيد غير منازع ، وقد أوتى الفتح المبين . وعنت
له رؤوس الماندين . ولكنه كان مشغولاً بأن يسود نفسه
لا بأن يسود الناس

لهذا كان ينام على حشية من ليف . ولم يبلغ من طعام حد
الشبع . ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين ، وجعل طعامه
التمر ، لا يتفق له ولآله أكل الثريد كثيراً . وكم من مرة ربط على
بطنه حبراً ليقاوم الجوع حين يشدد عليه .

وهذه عائشة أصغر زوجاته وآثرهن لديه بعد خديجة تصف
طعام زوجها العظيم الذى لم يؤت كسرى ولا قيصر مثل ساطانه
على قومه :

« ولم يأكل الذى خبزاً مرققاً ولا أكل خبزاً نقياً ، وقد جاءت
إليه فاطمة ابنته يوماً بكسرة خبز فقال :

— ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ .

قالت :

— قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيتك بهذه الكسرة
فقال صلى الله عليه وسلم :

— أما إنه أول طعام دخل فم أبيتك منذ ثلاثة أيام »

ودخل أبو بكر بيت النبي ليلاً ، فلم يجد سراجاً ، فسأل
ابنته عائشة :

— أما لكم سراج ؟

فقلت :

— لو كان لنا منسرج به أكلناه !

وماذا يسرج به ؟ الدهن أو الزيت . وذاك ما كان يعوز نبياً
وهو لا يعوز أفقر أتباعه الذين يقدونه بالنفس والنفيس .

قمة شاهقة في الزهد لا يطيقها كثيرون . فلا عجب أن نرى
زوجاته يتضجعون بهذا الضيق ، وهو الذي يملك خمس الغنائم
بشريعة القرآن ، فيهلك ذلك في الصدقات ولا يستبقى لآله من
الطيبات شيئاً ، حتى يتحسرن على ما يوقد به السراج ليأكلنه عسى
أن يرد عنهم غائلة الجوع . وهن يرين زوجات أدنى المسلمين
شأننا أوسع منهن رزقاً وأحظى بالرفاهية والزينة .

وصارحنه بما في نفوسهن من الضيق بهذا الضنك . فآلى أن
يمتزلهن جميعاً شهراً من الزمان ، حتى يحدث الناس أن النبي
حلق أزواجه .

وذهب النبي فعلاً يخبرهن بين الطلاق والرضا بما أخذ نفسه
به من المعيشة !

وليس يعنيننا هاهنا أنهن جميعاً اخترن الحياة معه على الوجه

الذى يريد لنفسه ولهن ، فما كان يدري شيئاً من هذا حين خيره من ذلك الخيار . بل كان موطناً نفسه على أنهم قد يختزن ما تصبو إليه نفوسهن من زينة الحياة الدنيا . . . وكان مستعداً لهذا الموقف مؤثراً زهده على كمال شيء . . .

وعمر الزاهد المخشوش ليس في زهده إلا تلميذاً لهذا الزاهد المطبوع . وقد رآه يوماً وقد أثر في جنبه الحصار الذى يفترشه لنومه ، فقال له :

— يا رسول الله ! قد أثر في جنبك هذا الحصار ، وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ! ؟ .
فاستوى النبي جالسا وقال :

« أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طبيباتهم في الحياة الدنيا ! »

ذاك هو الرجل الذى كان الزهد عنده طبعاً لا ضرورة . وغنى نفس لا فقراً ولا عجزاً . . . فإنه كان أقدر القادرين على البذخ ، لولا أن الاقتدار على نفسه كان مقدماً عنده على الاقتدار على المنام والطيبات .

وفتنة السلطان بأبا القاسم ؟
ما عرفت شيئاً يغير الرجال ويمتحن معادتهم مثل فتنة

السلطان ، وما رأيت رجلا — إلا الأفل الأفل — لم تغيره بوادر
النفوذ ، ولم تدرك رأسه خمر الساطة . فإذا خيلاء وصيّد تنغش له
النفوس ، حتى ليصدقني فيهم قول القائل : إنهم ينحطون باطنل كلما
ارتفعوا ظاهراً ، وإن فيهم الفتى الغر الذي لا يحسن من أمر
نفسه شيئاً ، فضلاً عن أمور الناس ، وينتفش بما ألقى إليه من
فتات الأمر والنهي كأنه الديك الرومي ، أو يتناقل في خطوه
وقد برز صدره ورأسه ، كأنه شربة يتأهب للانطاح !

وما سلطان هؤلاء الأغرار الهلافيت في جانب ما أوتيت
أنت من السلطان يا أبا القاسم ، يا لسان السماء ، ويا حاكم الدنيا ،
ويا من لا يعلو سلطانك على أتباعك من بني آدم سلطان ، فليس
فوقك إلا الهيمن الأحد ؟ .

هباء سلطان أولئك جميعاً مهما علوا واستطالوا إلى جانب
سلطانك ، أو أهون من الهباء .

وما فتنتك سلطان . وقد انتهيت من العنت والبأس والحصار
والمطاردة ، إلى النصر المؤزر ، والفتح المبين والطاعة العمياء
والسؤدد الذي لم ينبغ لأحد من قبل ولا من بعد !

يسمع الابن المبكر أنك وجدت على أبيه ذي الأيد والبأس
فيأتيك يسألك الرخصة أن يضرب عنقه ، فهو أولى بذلك من
سائر الناس . لتسكون لك به قرة عين ثم تأبى أنت وتمقو وتصفح
عن ذلك الفادر المتآمر كرامة لولده الطائع .

إلى هذا المدى بلغ سلطانك ، وناهيك به من سلطان . فما دار لك رأس ، ولا ركبتك خيلاء ، ولا أصابك تيه وزهو ! بل كنت تمشي في الأرض هونا . وتزداد مع نمو سلطانك تواضعا لله وخفض جناح للمؤمنين ! وكنت تقول وتعيد القول لاتمل من تكريره :

— إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ! وتذهب مع أبي هريرة إلى السوق فتشتري لنفسك سراويل ويثب البائع إلى يدك ليقبلها ، فتجذب يدك من يده مستنكرا وتقول له :

— هذا تفعله الأعاجم بملوكها . ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم « رجل منكم »

وما كان ملك من ملوك الأعاجم أو غير الأعاجم أبعد منك نفوذ في قومه ، ولا أمضى كلة وسلطانا منك في رعاياه . . . والسكنها عصمة الله التي عصمت بها من فتنة ذلك السلطان ، وإنه لكبير أجل كبير أمر ذلك السلطان ، وكبير ما قام عليه من الحق والهدى والفضل العميم ، ولكن لباب المسألة كلها أنك كنت أصغر من سلطانك هذا الكبير ، ولم يكفك أن ترى نفسك أجل من خيلاء تقبيل اليد ، فإذا بك تقول لأبي هريرة وقد تقدم يحمل عنك ما اشتريت :

— صاحب الشيء أحق بشيئته أن يحمله !
« رجل منكم »

ذلك ما أردت لنفسك ، وما أرادته لك خلة التواضع السمح .
بل أراده لك صدق الإيمان بأن الله الأمر جميعا ، وأن ليس لك
من الأمر شيء !

ويأتيك الرجل من الأعراب لييايمك يوم الفتح الرهيب ،
وأنت فوق قمة السلطان ، فتأخذه الرهبة بين يديك ويرتعد ،
فتأخذك من ذلك دهشة رائمة في بساطها وتقول له :

— « هون عليك ! لست بملك ! إنما أنا ابن امرأة كانت
تأكل القديد بمكة » !

إني والله لأخجل من قوم أراهم بعد ذلك يأخذهم الزهو
بالنصب ويركبهم الافتتان بالسلطان ، وأنا أتمثلك في هذا الموقف
الذي لا تدانيه في علوه وقفات المواهل الفاتحين . وإن مجد هذه
الكلمة وحدها ليرجح في نظري فتوح النزاة كافة ، وأبهة
القباصر أجمعين ...

أنت بأجمعك في هذه الكلمة ، وما أضخمها أيها
الصادق الأمين !

ثم سلام على الصادقين

لا بد مما ليس من بد

ماذا بقى من مزعم لزاعم ؟

إيمان امتحنه البلاء طويلا قبل أن يفاء عليه النصر ،
وما كان النصر متوقعا أو شبه متوقع لذلك الداعى إلى الله فى عاصمة
الأوثان والأزلام .

وعقيدة جاءت فى طورها الطبيعى ملبية حاجة الإنسان
الطبيعية ، موفقة بين دينه ودنياه ، ومتلافية تلك القسمة السقيمة
بين الروح والبدن ، فى السر والعلن . . .

ونزاهة ترتفع فوق المنافع ، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة ،
وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع . . .

لم يفد ، ولم يورث آله ، ولم يحمل لذريته وعشيرته ميزة من
ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها . وحرم على نفسه ما أحل لأحد
الناس من أتباعه ، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس فى
الجاهلية ، حتى جعل المبدان والأحايش سواسية وملوك قريش !
لم يمكن لنفسه ، ولا لذويه . وكانت لذويه بحكم الجاهلية

صدارة غير مدفوعة ، فسوى ذلك كله بالأرض ! .

أى قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق ،
أو تدافع هذا الصدق الصادق ؟ .

لاخيرة فى الأمر :

مانطق هذا الرسول عن الهوى .

لاخيرة فى الأمر :

ماضل هذا الرسول ، وماغوى ...

لاخيرة فى الأمر :

وما صدق نشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين ...

فسلام عليه بماهدى من سبيل ، وما قوم من نهج ، وما بين

من محبة ...

وسلام على الصادقين ...

محتویات الكتاب

[illegible]

الموسوعة الإسلامية الكبرى

هـ إن الكتاب الذي بين يديك هو المجلد الأول وحجر الأساس من موسوعة كبرى نقاول مجد الإسلام وتراثه وحضارته تناولاً جديداً ، فبمیزان تزيه مستقيم يقدم الدكتور نظمي لوقاً منهجاً عقلياً نفسياً إنسانياً يقوم على تقديس الحقيقة من حيث هي ، بصرف النظر عن نسبتها إلى هذا التزيق من الناس أو ذاك

وحقيقة الإسلام والتراث الإسلامي حقيقة على ضوء هذا المنهج إن نعم بتورها كل حقل متفتح للحقيقة ، وكل قلب لا يصد عن الصديق .

إن هذه الموسوعة يكتبها التي تجاوز العشرين كتاباً أصديق محلة على العصبية الضمياء ، وأحمد كفاح في سبيل انتصار النزاهة وسيادة سلطان الحق والعدل والكرامة البشرية ، ولا قيمة لإنسان لا قيمة للحق لديه .

هـ والكتاب الثاني من هذه الموسوعة شخصية الرسول هـ محض الرد بذلك المنهج العنثي الذي الإنسان على جميع المقترحات التي رمى بها المغرضون في الإسلام ، رداً يقنع كل إنسان ، ويقرض احترام شخصيته الجليلة على المؤمنين بالإسلام ويعبر الإسلام على السواء

To: www.al-mostafa.com